الفصل الثالث
مظاهر تقدم العلوم الإنسانية والتطبيقية

الفصل الثالث

مظاهر تقدم العلوم الإنسانية والتطبيقية

أولاً: العلوم الإنسانية

علوم اللغة والنحو والأدب

حفلت مدن الصغد خلال العصر السلجوقى بعدد كبير من علماء اللغة والنحو والأدباء والشعراء الذين خلفوا ثروة أدبية ضخمة.

اللغة(١)

اللغة من أكرم النعم التى أسبغها الله عز وجل على الإنسان فى خلقه وجعلها خاصته التى تميز بها عن غيره من مخلوقات الحياة غير الجن والملائكة، فهى سبيل ووسيلة اتصاله بمحيط أسرته وحيه وبلده والبشرية من حوله، ووسيلة نقله أفكاره ونظراته وأحاسيسه وعواطفه.

---

(١) اللغة: نظام من الرموز الصوتية، وعرفها اللغوى العربى ابن جنى بأنها" أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"* واللغة فى الاصطلاح علم يعرف به أوضاع الكلمة العربية حيث تأليف حروفها، واشتقاقها ودلالتها على معناها، وهل هى مشتركة بين عدة معان أو مختصة بمعنى واحد لا تدل على غيره وفائدتها معرفة وجوه الكلام العربى ومراتب فصاحته نثرا ونظما مما يعين على فهم كلام الله وسنة رسوله**. وعرفه ابن حجة الحموى: بقوله إن علم اللغة هو البحث عن المعنى الذى وضع له اللفظ***.

* محمود فهمى حجازى: المدخل إلى علم اللغة، دار الثقافة القاهرة، ١٩٧٦م، ص١١.

** أبو بكر جابر الجزائرى: العلم والعلماء، دار الكتب العلمية بيروت، دار الكتب السلفية القاهرة، ص٧٢.

*** ابن حجة الحموى: خزانة الأدب وغاية الأرب، جـ١، ط٢، بيروت، ١٩٩١م، ص٢٣.

كما هى القالب الذى تفرغ فيه الأمة أفكارها ومفاهيمها وثقافتها ومعتقداتها وعواطفها وأمجادها. وبعبارة أخرى اللغة هى المرآة التى تعكس فى جرس ألفاظها ونغمات تعابيرها وطريقة أدائها خصائص المتكلمين بها وصفاتهم وملامح شخصيتهم ومعالم تفكيرهم وعقليتهم وسمات طبائعهم وعاداتهم وأخلاقهم(١).

كان اهتمام المسلمين بتفسير القرآن الكريم دافعا لأن يهتموا اهتماما بالغا بعلوم اللغة، ولم يزل الأئمة من الصحابة ومن تلاهم من التابعين يحضون على تعلم العربية وحفظها، والرعاية لمعانيها؛ إذ هى من الدين بالمكان المعلوم، فبها أنزل الله كتابه المهيمن على سائر كتبه، وبها بلغ رسوله ﷺ وظائف طاعته وشرائع أمره ونهيه(٢).

أصبحت اللغة العربية فى فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، لغة عالمية استوعبت مجالات التعبير فى فروع المعرفة المختلفة، ألف بها مؤلفون من جماعات لغوية مختلفة، وكانت العربية الوسيلة المشتركة للتعبير عندهم جميعا. والتراث العربى فى الواقع ثمرة جهود مؤلفين ينتمون إلى مناطق كانت لها لغاتها المحلية ولكن هذه اللغات لم يكن استخدامها يتجاوز الحياة اليومية، فقد كانت اللغة العربية لغة العلم والثقافة بلا منافس(٣). وظلت

---

(١) السيد محمد صديق حسن خان القنوجى: البلغة فى أصول اللغة، تحقيق نذير محمد مكتبى، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٩٩٨م، ص٥.

(٢) الزبيدى: طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ص١٢.

(٣) رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، ترجمة محمد موسى هنداوى، دار الفكر العربى ١٩٤٧م، ص١٤. محمود فهمى حجازى: اللغة العربية عبر القرون، ط٢، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٨م، ص٥٧.

Eva Jeremias, Rabita in the Classical Perisian Literary Tradition , the Impact of Arabic Logic on Persian, Jerusalem Studies in Arabic and Islam.the Institute of Asian and African Studies, vol.27, 2002, p551.

هكذا حتى أواخر القرن الثالث الهجرى تقريبا، حتى أخذت القومية الفارسية تنهض وتحاول أن تحيى معها اللغة الفارسية الحديثة التى اعتمدت على اللغة العربية فى كثير من كلماتها واصطلاحاتها[١]، وبدأت اللغة الفارسية تنافس اللغة العربية فى بلاد ما وراء النهر فى منتصف (ق٤هـ/ ١٠م) وبدأ الأدب الفارسى فى التطور وزاد استخدام اللغة الفارسية فى التأليف، واستخدمت اللغة العربية بصورة مطردة فى العلوم الأساسية وأصبحت اللغة الفارسية لغة الدولة ولغة المؤلفات التاريخية والأدبية[٢] غير أن العربية مع هذا لم يضعف شأنها، بل كان لها الرجحان على الفارسية لكونها لغة القرآن الكريم والعلوم الدينية التى أنصب عليها الاهتمام خاصة خلال العصر السلجوقى[٣].

الجدير بالذكر أن المؤلفات الفارسية اعتمدت اعتمادا كليا على المصطلحات العلمية العربية، فكانت العربية هى لغة الأساس أو اللغة المصدر التى أخذوا منها المصطلحات أو اشتقوا من موادها اللغوية مصطلحات جديدة، ومن هذا المنطلق كانت العربية تقوم بدور قيادى[٤]. ولا شك أن العصر السلجوقى فى مدن إقليم الصغد كان من عصور الازدهار العلمى

---

(١) حسين مجيب المصرى: صلات بين العرب والفرس والترك، الدار الثقافية، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٨٥. فؤاد عبد المعطى الصياد: دور الفرس فى بناء الحضارة الإسلامية، ص٧٩. محمد نور الدين عبد المنعم: دراسات فى الشعر الفارسى حتى القرن الخامس الهجرى، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٦م، ص١٤.

Frye, The Heritage of Persia, History of civilisation , p251,252. Wickens, Persian Literature,An Affirmation of Identity Introdution Islamic civilisation, p72.

(٢) محمود فهمى حجازى: المرجع نفسه، ص٥٧. نور الدين آل على: دروس اللغة والأدب الفارسى، القاهرة، ١٩٧٨م، ص١٧

Lapidus, A History of Islamic Societies, c.3, U.S.A, 2002, p126.

(٣) حسين مجيب المصرى: المرجع نفسه، ص١١٥.

(٤) محمود فهمى حجازى: اللغة العربية عبر القرون، ص٥٨.

والعطاء والتطور فى خدمة اللغة العربية، ذلك أن العلماء انطلقوا فى مرحلة التفاعل الحضارى والنضج إلى حيث أخرجوا الموسوعات الضخمة والمعاجم الجامعة، فحق أن يدعى لذلك العصر أنه عصر الموسوعات؛ إذ كان شعور العلماء فيه باشتداد ضعف ملكة اللسان، وحاجة النشء فى تنشئته على الملكة الصحيحة واستيعاب علوم العصر دافعا للقوم أن يهتموا باللغة ووضع المعاجم من أجل ذلك[١].

ظلت اللغة العربية خلال العصر السلجوقى لغة الثقافة والنتاج الفكرى أما لغة الدولة فكانت اللغة الفارسية. وكان يلاحظ أن مؤلفى الكتب العربية فى هذه الفترة لديهم تدين شديد جعلهم يذكرون أن أشرف العلوم علم الكتاب والسنة وأن اللغة العربية مفتاح الدراسات الدينية[٢].

بلغ علم اللغة فى مدن الصغد خلال العصر السلجوقى قمة ازدهاره، وصال فى ميدانه وجال عدد من كبار علماء العصر أمثال الإمام أبو القاسم على بن أبى يعلى بن زيد حمزة الدبوسى (ت٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م) كان من كبار مشايخ الشافعية إماما فى الفقه والأصول واللغة والبلاغة، درس بنظامية بغداد، وأملى مجالس وتفقه عليه جماعة[٣] والشيخ الإمام أبو حفص نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل أبو حفص النسفى (ت٥٣٧هـ/ ١١٤٢م). كان إماما فاضلا متفننا صنف فى كل نوع من العلم، وصنف فى اللغة كتاب طلبة الطلبة ذكر فيه ألفاظ الفقه فى كتب الحنفية-لغة الفقهاء-[٤].

(١) إبراهيم على أبو الخشب: تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى، ص٣٩.

(٢) نظام الملك: سياست نامه، ص٣.

(٣) الأسنوى: طبقات الشافعية، جـ١، ص٢٥٥. الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ١٩، ص٩١ - ٩٣. السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، جـ٥، ص ٢٩٦، ٢٩٧. ابن الصلاح الشهرزورى: طبقات الفقهاء الشافعية، جـ٢، ص٨١٨. ابن كثير: طبقات الفقهاء الشافعية، جـ٢، ص٤٨٣.

(٤) طاش كبرى زاه: مفتاح السعادة ومصباح السيادة، جـ١، ص١٢٧. القرشى: الجواهر=

ويعد أبو القاسم محمود بن على نصر بن أبى يعمر الأديب النسفى نزيل سمرقند (ت٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) من كبار اللغويين، أديبا فاضلا وكان خيرا صالحا، صدوقا[١]. وعلى بن محمد بن طاهر بن على بن تراب التميمى الكرمينى (ت٥٥٦هـ/ ١١٦٠م) كان أحد الأئمة الكبار، أديبا عظيما، حافظا لأصول اللغة، عديم النظير فى زمانه، كما كان ورعا عفيفا كثير التلاوة، متقنا لما ينقله[٢]. كما كان أبو بكر عتيق بن عبد العزيز السمرقندى ثم النيسابورى الأديب الأوحد (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٤م) من كبار اللغويين، أديبا شاعرا حسن النظم، له المحفوظات فى اللغة، سمع عبد الغفار بن شرويه وأبا بكر الحسين الأديب[٣] وأبو بكر بن أبى الحسن عبد الله بن على بن صائن بن عبد الجليل بن الخليل بن أبى الفرغانى (ت٦١٦هـ/١٢١٩م) سكن سمرقند وكان يتولى الخطابة بها، وكان إماما كبيرا فى المذهب والخلاف والحديث واللغة والنحو مع فصاحة اللسان وعذوبة الألفاظ، وكان حسن الصورة، لطيف الأخلاق، وله النظم والنثر الجيد[٤].

ومن أئمة علماء اللغة محمد بن سليمان بن قترمش السمرقندى (ت٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) كان أديبا فاضلا لغويا متفننا مليح الكتابة، أخذ من كل فن من العلم بنصيب وافر. وكان من أبناء الأمراء ولى الحجابة الكبرى

=المضية، جـ٢، ص ٦٥٧، ٦٥٩. ابن قطلوبغا: تاج التراجم، ص١٦٣. الزركلى: الأعلام، جـ٥، ص٦٠.

(١) الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ٣٨، ص٣٧٠. السمعانى: التحبير فى المعجم الكبير، جـ٢، ص٢٨٦.

(٢) الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ٣٨، ص ٢٠٣. السيوطى: بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم، جـ٢، بيروت، ص١٨٩.

(٣) الذهبى: المصدر نفسه، جـ٣٨، ص ٣٠٧، ٣٠٨. الصفدى: الوافى بالوفيات، جـ١٩، ص٤٥٩. ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج٢، ص٣٣.

(٤) السيوطى: المصدر نفسه، جـ٢، ص٥٠. القرشى: الجواهر المضية، جـ٢، ص٣١٤.

ببغداد[1]. وأبو الوحدة العمادى محمد بن عبد الستار بن محمد شمس الأئمة الكردرى الخوارزمى (ت٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م) كان أستاذ الأئمة على الإطلاق والموفود عليه من الآفاق، نزيل سمرقند، قرأ العربية بخوارزم على الشيخ برهان الدين ناصر بن أبى المكارم عبد السيد بن على المطرزى صاحب المغرب والمعرب، وتفقه بسمرقند على شيخ الإسلام برهان الدين أبى الحسن على بن أبى بكر المرغينانى والشيخ مجد الدين السمرقندى الذى عرف بإمام زاده[2].

كما يعد العلامة رضى الدين أبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن ابن حيدر بن على ابن إسماعيل العدوى الصاغانى أصله من بلاد الصغد، من كبار اللغويين ولد سنة (٥٧٧هـ/ ١١٨١م) بلاهور من بلاد الهند، ونشأ بغزنة ورحل إلى بغداد طلبا للعلم ودخل اليمن، وكان إليه المنتهى فى علم اللغة ومعرفة اللسان العربى، وله مؤلفات كثيرة تدل على سعة الاطلاع وامتداد آفاق البحث والإحاطة بأطرافه، ومن مؤلفاته فى اللغة كتاب مجمع البحرين فى اللغة فى أثنى عشر مجلدا، وكتاب العباب الزاخر واللباب الفاخر وهو معجم كبير فى عشرين جزءا من أشهر معاجم اللغة، ومات قبل إكماله وانتهى فيه إلى فصل (ب ك م) من حرف الميم فقال فى ذلك بعد أدباء بغداد:

إن الصاغانى الذى حوى - حاز - العلوم والحكم
كأن قصارى أمره أن انتهى إلى بكم[3]

(١) الذهبى: المصدر نفسه، جـ٤٤، ص٥٠٩. سامى محمد صالح الدلال: تقريب تراجم تاريخ بغداد مع ذيليه واستفادات الدمياطى، مج٤، القاهرة، ١٩٩٢، ص٣١٤. المتولى ابن رمضان أحمد الدميرى: الضوء الكاشف فى ترتيب نحاة البغية تاريخيا مع ذكر مؤلفاتهم، القاهرة، ١٩٩٢، ص١٦٢.

(٢) ابن قاضى شهبه: طبقات النحاة واللغويين، ص١٦٦.

(٣) ابن تغرى بردى: المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، جـ٥، ١٩٨٨م، ص١٢١، ١٢٢. الصاغانى: التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة=

كما أَلَّف كتاب التكملة والذيل والصلة فى اللغة، وسار فى ترتيب المواد اللغوية على حسب الحرف الأخير من الكلمة على نظام الباب والفصل، وتقع التكملة فى ستة أجزاء. وله كتاب الشوارد فى اللغات، وكتاب الأضداد، وكتاب أسماء الأسد، وكتاب أسماء الذئب، وكتاب النوادر فى اللغة، وغير ذلك وكان شيخا صالحا توفى (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م)[١].

خلاصة القول كانت اللغة العربية التى أنزل الله بها كتابه، لغة تضمنت من عناصر الخلود ومعانى البلاغة، وبراعة التصوير وقوة البيان ما يجعلها قادرة على أن تحول الشعوب، ومن ثم كانت هذه اللغة بمثابة التربة الخصبة للنتاج الفكرى الإسلامى خلال العصر السلجوقى .

علم النحو

هو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى، مطلقا بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب وقوانين مبنية عليها، ليحترز بها عن الخطأ فى التركيب من حيث تلك الكيفية[٢]. والنحو إذا هو قانون اللغة، وميزان تقويمها[٣].

=وصحاح العربية، تحقيق عبد العليم الطحاوى، مج١، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠، ص٦، ٧. اللكنوى: الفوائد البهيه، ص٦٣. ياقوت الحموى: معجم الأدباء، مج٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١، ص٩٤. اليمانى: إشارة التعيين فى تراجم النحاة واللغويين، ص٩٨. عبد الصاحب عمران الدجيلى: أعلام العرب فى العلوم والفنون، جـ٢، ط٢، العراق، ١٩٦٦، ص ٧٢، ٧٣.

(١) الصاغانى: المصدر نفسه، مج١، ص٦،٧. الكتبى: فوات الوفيات والذيل عليها، جـ١، ص٣٥٩، ٣٦٠. اليمانى: المصدر نفسه، ص٩٩. عبد الصاحب عمران الدجيلى: المرجع نفسه، جـ٢، ص ٧٣.

(٢) السكاكى: مفتاح العلوم، تعليق نعيم زرزور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧ ص٧٥.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١، ص١٦٧.

فلم تزل العرب تنطق على سجيتها فى صدر إسلامها وماض جاهليتها حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان، فدخل الناس فيه أفواجا، واتسعت الفتوحات الإسلامية واختلط العجم بالعرب واندمج بعضهم فى بعض، فبدأ التغيير فى ملكتهم، وظهر اللحن فى لغتهم وتسربت العجمة إلى لسانهم، فخشى العلماء أن تفسد اللغة، وتذمروا مما كانوا يسمعونه من اللحن وخصوصا فى قراءة القرآن وأحسوا بالحاجة إلى ما يصون لغتهم من اللكنة، ولسانهم من اللحن والعجمة، فوضعوا علم النحو وتعجلوا فى وضعه عناية منهم بالقرآن، وحرصا على نطقه بلسان عربى مبين[1].

هكذا نشأ علم النحو نتيجة اختلاط العرب بالأعاجم عندما دخل كثير منهم فى الإسلام عندئذ ظهرت الحاجة إلى وضع قواعد تعصم اللغة العربية من الخطأ[2] واهتم علماء مدن الصغد فى العصر السلجوقى بدراسة علم النحو وحفلت بظهور طائفة كبيرة من علماء النحو وكان ذلك طبيعيا لتسلط الأعاجم وشيوع لغتهم الفارسية ومزاحمتها اللغة العربية، ونخص بالذكر منهم الإمام أبا القاسم على بن أبى يعلى بن زيد حمزة الدبوسى (ت٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م) كان من كبار أئمة الشافعية متفردا فى النحو والأصول واللغة والبلاغة، مع التفنن فى أصناف العلوم وحسن المعتقد، وكان حسن الخَلق والخُلق سمحا جوادا كثير المحاسن قدم بغداد وولى تدريس النظامية تفقه عليه جماعة من البغداديين والغرباء[3].

---

(١) الزبيدى: طبقات النحويين واللغويين، ص١١. أبو الطيب اللغوى: مراتب النحويين، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٧٤، ص٢٣. أبو زيد شلبى: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٢٢٣.

(٢) عبد الحميد العبادى وآخرون: الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها، ص٤٨.

(٣) الأسنوى: طبقات الشافعية، جـ١، ص٢٥٥. الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ١٩، ص٩١ - ٩٣. السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، جـ٥، ص٢٩٦، ٢٩٧. ابن الصلاح الشهرزورى: طبقات الفقهاء الشافعية، جـ٢، ص٨١٨. ابن كثير: طبقات الفقهاء الشافعية، جـ٢، ص٤٨٣.

كما كان من أشهر النحويين الشيخ الإمام أبو محمد عطاء ملك بن عبد الجبار بن أبى طاهر بن المفتى بن على بن أبى الأشعث بن موسى النحوى (ت٥١٢هـ/ ١١١٨م) نزيل سمرقند ذكره النسفى وقال: قرأ السمعانى بخط الإمام أبى محمد عطاء مالك بن عبد الجبار بسمرقند فهرست مصنفات أبى عبد الله الحسين بن أبى الحسين الكاشغرى المعروف بالفضل فسردها وهى فى التفسير والفقه والرقائق والنحو وغيرها يزيد على مائة وعشرين مصنفا[١].

كذلك يعد أبو القاسم محمود بن على نصر بن أبى يعمر الأديب النسفى نزيل سمرقند (ت٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) نحويا فاضلا خيرا صالحا، صدوقا، سمع أبا بكر محمد بن أحمد البلدى، قال عبد الرحيم بن السمعانى: سمعت منه أخبار مكة للأزرقى[٢].

وكان أبو الفضل محمد بن عمر بن محمد بن العباس بن على الاشتيخنى السمرقندى النحوى الأديب (ت٥٦٠هـ / ١١٦٤م)، أديبا نحويا بارعا صالحا، كتب بنفسه أمالى أئمة سمرقند[٣]. وأبو المعالى بن عطاء الملك ابن عبد الجبار بن أبى طاهر السمرقندى الخطيب النحوى (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)، كان من كبار النحويين، سمع أباه وأبا بكر محمد بن أحمد البلدى وأبا القاسم عبيد الله الكشانى[٤]. وأبو بكر بن أبى الحسن عبد الله بن على بن صائن ابن عبد الجليل بن الخليل بن أبى الفرغانى (ت٦١٦هـ/ ١٢١٩م) سكن سمرقند، وكان من أشهر النحويين[٥]. ومن بينهم محمد بن سليمان

(١) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص٥٨٤.

(٢) الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ٣٨، ص٣٧٠. السمعانى: التحبير فى المعجم الكبير، جـ٢، ص٢٨٦.

(٣) الصفدى: الوافى بالوفيات، جـ٤، ص٢٤٦.

(٤) الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ٣٨، ص٣٥٤.

(٥) السيوطى: بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة، جـ٢، ص٥٠. الصفدى: المصدر نفسه، جـ١٧، ص ٣٣٢، ٣٣٣. القرشى: الجواهر المضيه، جـ٢، ص٣١٤.

ابن قترمش السمرقندى (ت٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) كان نحويا وأديبا فاضلا متفننا مليح الكتابة، وأخذ من كل فن من العلم بنصيب وافر، إلا أنه كان قليل الدين[١].

ومن أئمة علماء النحو العلامة رضى الدين أبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن على بن إسماعيل العدوى الصاغانى (ت٦٥٠هـ / ١٢٥٢م) كان من كبار النحويين، رحل فى طلب العلم وصنف التصانيف الكثيرة، ومنها: كتاب فى التصريف وله كتاب فعال على وزن حذام، وكتاب فعلان على وزن شنان، وكتاب الانفعال، وكتاب يفعول، وكتاب التراكيب[٢].

صفوة القول كان لعلم النحو فوائد جمة لمعرفة اللسان العربى الذى نزل به القرآن الكريم وبينه رسوله للأمة، فبمعرفة اللسان العربى تعرف شريعة الله التى وجب معرفتها والعمل بها، امتثالا لقول الله تعالى" إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"[٣] وقوله عز وجل" نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ"[٤] كما روى عن عمر بن الخطاب أنه قال: "رحم الله امرأ أصلح من لسانه وقال أيضا: تعلموا العربية فإنها تثبت

---

(١) الذهبى: المصدر نفسه، جـ٤٤، ص٥٠٩. سامى محمد صالح الدلال: تقريب تراجم تاريخ بغداد مع ذيليه واستفادات الدمياطى، مج٤، ص٣١٤. المتولى بن رمضان أحمد الدميرى: الضوء الكاشف فى ترتيب نحاة البغية تاريخيا مع ذكر مؤلفاتهم، ص١٦٢.

(٢) الصاغانى: التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية، مج١، ص٦،٧. الكتبى: فوات الوفيات والذيل عليها، جـ١، ص٣٥٩، ٣٦٠. ياقوت الحموى: معجم الأدباء، مج٣، ص٩٤ . اليمانى: إشارة التعيين فى تراجم النحاة واللغويين، ص٩٨، ٩٩.

(٣) يوسف: آية٢.

(٤) الشعراء: آية١٩٣-١٩٥.

العقل[1]. من هذا المنطلق اهتم العلماء فى مدن إقليم الصغد بدراسة اللغة والنحو للتعرف على الشريعة الإسلامية. ولما كان البحث فى مجال العلوم الدينية يتطلب سعة اطلاع فى حقل اللغة العربية فقد اكتسبت هذه اللغة قوة، نظرا للارتباط الوثيق بين علم اللغة والنحو من ناحية والعلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير من ناحية أخرى .

الأدب[2]

هو الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ويستقرى منها الناظر فى الغالب معظم قوانين العربية[3]. ارتقى الأدب الفارسى فى مدن الصغد فى عصر السلاجقة وزاد عدد الشعراء والكتاب نتيجة تشجيع الحكام وكبار رجال الدولة[4] الذين رأوا أن وجودهم فى البلاطات من جملة لوازم الرياسة، وأن فضل البلاط على غيره يقاس بعدد من فيه من أدباء[5].

جدير بالذكر أن كثيراً من السلاجقة كانوا لا يعرفون اللغة الفارسية،

---

(١) ابن الأحمر: أعلام المغرب والأندلس، تحقيق محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٦، ص٥٢. القرطبى: بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، مج١، ص٦٤.

(٢) لغة مصدر أدب يأدب أدبا إذا ظرف وتهذبت أخلاقه فهو أديب، واصطلاحا: علم يقتدر به صاحبه على التصرف فى وجوه الكلام العربى المنظوم منه والمنثور فيكتب ويخطب ويحاضر ويحادث بعيدا عن الخطأ والخلل فيه. وطريقة تحصيل هذا الفن بعد معرفة اللغة وعلومها من نحو وصرف وبلاغة والإكثار من الجيد من كلام العرب المنثور والمنظوم والتعرف فى وجوهه كتابة وخطابة . أبو بكر الجزائرى: العلم والعلماء، ص٧٢، ٧٣.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، بيروت، ١٩٨٦م، ص٦١٢.

(٤) رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، ص١١٨.

(٥) أحمد كمال الدين حلمى: عمر الخيام عصراً وبيئةً ونتاجًا، ص٥٤.

لأنها ليست لغتهم الأصلية، فكانوا لا يستطيعون فهم الأدب وتذوقه، غير أنهم كانوا يشجعون الأدباء من كتاب وشعراء ويجزلون لهم العطاء ليكثروا من مدحهم والثناء عليهم، فيبقى ذكرهم على مر السنين[١] وكان السلطان سنجر كثير العطاء للشعراء والفضلاء، وأن المدائح التى دارت حوله لم يحظ بها أى من الملوك الآخرين[٢].

حذا حكام الأقاليم فى بلاد ما وراء النهر، وكبار رجال الدولة فى العصر السلجوقى حذو السلاطين فى تشجيع الأدباء، فكانوا يعطونهم بسخاء، فراجت سوق الأدب رواجا كبيرا فى مدن إقليم الصغد فى هذا العصر، وتفنن الشعراء والكتاب فى صناعة الأدب فوصل فن الأدب الفارسى إلى درجة رفيعة من الرقى والتقدم وكثر عدد الشعراء والكتاب النابهين الذين ذاعت شهرتهم فى أرجاء العالم الإسلامى كله فى ذلك الوقت[٣].

ومما ساعد على توسعة دائرة الأدب وساهم فى رواجه فى إقليم الصغد فى العصر السلجوقى أن النثر والشعر كانا متداولين فى الخانقاوات ويستخدمهما الصوفية فى مؤلفاتهم لإرشاد الناس وهدايتهم[٤]. ومن ثم كان للأدب شعره ونثره دور" مهم" فى التعبير عن الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى مدن إقليم الصغد؛ إذ إنه المرآة التى تنعكس عليها أحداث كل عصر. ونظرا للصراع المذهبى الذى نشب بين

---

(١) عبد النعيم محمد حسنين: إيران والعراق فى العصر السلجوقى، ص١٨٩.

(٢) محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى وشعره الجاد، ص٥٩.

(٣) عبد النعيم محمد حسنين: إيران والعراق فى العصر السلجوقى، ص١٨٩.

(٤) أحمد كمال الدين حلمى: عمر الخيام عصراً وبيئةً ونتاجا، ص٥٤. ذبيح الله صفا: خلاصة تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران، تهران، ٢٥٣٦، ص١٦٠. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، ص١١٨. قاسم غنى: تاريخ التصوف فى الإسلام، ص٦٦٣.

Lapidus, A History of Islamic Societies, P130.

المذاهب الإسلامية والفرق والملل والنحل التى انتشرت فى العالم الإسلامى إبان العصر السلجوقى، فوجد الأدب مجالا خصبا لتسجيل الأصول والمبادئ والأفكار التى كانت تدعو لها كل فرقة من ناحية وتصوير الصراع المذهبى بين هذه الفرق من ناحية أخرى[١]. وتعددت اتجاهات المؤلفين فى الكتابة وتنوعت مذاهبهم فيها وأصبح كثير من مؤلفاتهم من أقوم ما كتب فى الأدب الفارسى التى استوفت حظها من الجمع والاستيعاب والشمول[٢].

تعد فترة حكم السلاجقة من ألمع الفترات الأدبية من حيث كثرة الشعراء والكتاب، ويلاحظ على أدب هذه الفترة التأثير الواسع للثقافة العربية والأدب العربى على الأدب الفارسى[٣]، وربما يرجع السبب فى هذا إلى أن السلاجقة لم يكونوا فرسا متعصبين للقومية الفارسية التى كانت منتشرة فى العصر السامانى، كما كان لاهتمام السلاجقة بالمظاهر الدينية وإنعامهم على الأدباء والعلماء من أصحاب اللسان العربى أثره الواضح فى ظهور عدد كبير من الأدباء الذين نظموا ونثروا بالعربية أكثر من غيرها[٤].

كان لنشوء الأدب الفارسى وازدهاره فى حضانة الأدب العربى وسيطرته، أن تبع الأدب الناشئ الأدب القديم فى الصياغة الفنية، التى أولع بها بعض شعراء العرب منذ القرن الثالث الهجرى. ثم زادت صنوفها وشاعت وعمت حتى حيرت الشعر صناعة لفظية فصيغت المجازات

---

(١) مجدى عبد المنعم عجمية: الاختلاف حول منزلة السنة وأثره فى الشعر الإسلامى عند العرب والفرس، مج٥، الأعداد من الأول إلى الرابع، رسالة المشرق، ص٣٨٥.

(٢) مريزن سعيد مريزن عسيرى: الحياة العلمية فى العراق، ص٣٧٦.

(٣) Ella Marmura, Arabic Literature, U.S.A, 1976,p62 .Morrison, Julian Baldick, History of Literature from the Beginning of the Islamic Period to the Present day.Brill,1981,p6.

(٤) محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى وشعره الجاد، ص٦٥.

والاستعارات الفارسية على غرار ما ألف فى الأدب العربى[١]. وأصبح كتاب الفرس وكأنهم عرب، وباتت عبارتهم صعبة غامضة المعنى لكثرة الألفاظ العربية فى الأسلوب الفارسى[٢]. ولاشك أن هذا التطور فى النثر الفارسى فى الشكل والمضمون قام بهندسته نخبة من رجال الفكر الذين يحسنون اللغتين المنقول عنها والمنقول إليها[٣].

ويعتبر عصر السلطان ملكشاه وعصر السلطان سنجر من العصور الذهبية للأدب الفارسى عامة والشعر الفارسى خاصة، وإذا كان التأليف بالفارسية راج فى هذا العصر فقد حدث الشىء نفسه بالنسبة إلى التأليف بالعربية، فكثر عدد المؤلفين بالعربية ممن هم من أصل فارسى، ودخلت مؤلفاتهم فى عداد آثار الأدب العربى القيمة[٤].

أ - النثر

مر النثر الفارسى حتى العقد الثانى من القرن السابع الهجرى بمرحلتين وشملت كل منهما اتجاهين: الأول التقليد لما كتب فى النثر العربى أو لما بقى من الآثار الفارسية القديمة، والثانى الاستقلال والتجديد.

* المرحلة الأولى تبدأ من ظهور الآثار الفارسية الإسلامية المنشورة والتى يعود تاريخها إلى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى. ومنذ بداية القرن الرابع الهجرى بدأ التأليف بالفارسية الإسلامية حين أخذ الأمراء السامانيون فى إحياء القومية الإيرانية وأغدقوا العطاء على الشعراء والكتاب وضموهم

---

(١) أحمد أمين وزكى نجيب محمود: قصة الأدب فى العالم فى الأدب القديم وأدب العصور الوسطى، جـ١، ط٢، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٤٤١.

(٢) أحمد كمال الدين حلمى: عمر الخيام عصرًا وبيئةً ونتاجًا، ص٥٦.

(٣) حسين الحاج حسن: أعلام فى النثر العباسى، بيروت، ١٩٩٣، ص٣٧.

(٤) أحمد كمال الدين حلمى: المرجع نفسه، ص ٥٦، ٥٧.

إلى بلاطهم[١]، وتميز النثر فى هذه المرحلة بالسهولة والبساطة والخلو من التكلف والصنعة، يستخدم من الألفاظ ما يعين على بيان المقصود، وكانت الكلمات العربية المستخدمة نادرة لدرجة أنها كانت فى الشعر أكثر منها فى النثر[٢].

* المرحلة الثانية بدأت منذ أوائل القرن الخامس حتى أواخر النصف الأول من القرن السادس الهجرى أو يزيد حتى تصل إلى نهايته، وكتب الكتاب مؤلفاتهم بالعربية والفارسية، وبلغ تعداد ما ألف أضعاف ما كتب فى القرن الرابع الهجرى، وفيها نرى تطورا فى النثر الفارسى نحو النضج والكمال، ونجد كتابا كبارا يثرون الحياة الأدبية بآثار نثرية متنوعة[٣] ومرد ذلك إلى ظهور الدولة السلجوقية، واتخاذها اللغة الفارسية لغة رسمية للدولة وكتابة وثائقها ومراسلاتها باللغة الفارسية[٤] وتميز أسلوب النثر فى هذه المرحلة باتجاهه إلى التكلف والصنعة واختلط بالنثر العربى بل اقتبس منه كثيرا، حيث زين كتاب هذه المرحلة كتاباتهم بكثير من المفردات والمركبات

---

(١) رضا مصطفوى سبزوارى: سهم زبان فارسى زبانان در تمدن جهانى، مجلة اشتا، شماره سيزدهم، سال سوم، ١٣٧٢، ص٥٢.

Derek Hill and Oleg Grabar, Islamic Architecture and its Decoration, .p33. Frye ,The Heritage of Persia , p254. Wickens, Persian Literature,p72.

(٢) ذبيح الله صفا: تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران، ص١٦٠. السباعى محمد السباعى: النثر الفارسى، ص٩ - ١٣.

(٣) السباعى محمد السباعى: المرجع نفسه، ص١٦، ١٥.

(٤) عبد الكريم كلشنى: فرهنك در قلمرو تركان. أشعار ونويسندهء قرن دهم آلبانى، شيراز، ١٣٥٤، ص١٣. ذبيح الله صفا: تطور الشعر الفارسى قبل الإسلام وبعده، الدراسات الأدبية فى الثقافتين العربية والفارسية وتفاعلهما در فرهنك إيرانى وعربى وتأثيراتها الجامعة اللبنانية، السنة ٣، العدد١، ١٩٦١م، ص١٠١.

العربيـة التى أدخلوها لغتـهم، وتحول الإيجـاز إلى إطناب وقصـر الجمل إلى طول فيـها، وكـثر الاستـشهاد بآيات الـقرآن الكريم وبالنظم العـربى، وشاع ضرب الأمـثال وإيراد النوادر العربية بصـورة توحى بتقليد نثـر العرب الفنى، وراج اسـتعـمال الكنايـات والاستـعارات والتـشبيـهات والموازنة والسـجع والصناعات البديعية بصفة عامة[١]. وبالتالى كان الأدب العربى وبخاصة النثر المعين الذى يصدر عنه فيض ملكات الأدباء الفرس لفترة طويلة من الزمن[٢].

بقى الأدب العربى أدبا لشعرائها وكتابها وأدبائها واشتهر نظامى عروضى السمـرقندى وهو نجم الدين أحـمد بن على (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٤م) من كـبار كتـاب و شعراء القرن السـادس الهجرى، بكتـابه جهار مقـاله الذى ألفه سنة (٥٥٠هـ/ ١١٥٥م)[٣] وهذا الكتاب مـشتمل على أربع مـقالات: الأولى فى ماهية الكتابة وصفة الكاتب البليغ الكامل، والثانية فى ماهية الشعر وصلاحية الشاعر، والثالثة فى مـاهية علم النجوم وتمكن المنجم فى هذا العلم، والرابعة فى ماهية علم الطب وهدى الطبيب وصفته[٤].

---

(١) أحمد كمال الدين حلمى: عمر الخيام عصـرًا وبيئةً ونتاجًا، ص٥٦. عبد العزيز مصطفى بقـوش: تطور النثر الفـارسى فى ايران والهند، دار الثقـافة العـربية، القـاهرة، ١٩٨٦، ص١٣. على الشابى: الأدب الفارسى فى العصر الغزنوى، ص٣٥٩، ٣٦٠.

Julia Rubanovich, Literary Canon ard Patterns of Evaluation in Persian Prose on eve the Mongol Invasion, Studia Iranica,tome.32,no.1,2003, p50.

(٢) مصطفى الشكعة: الأدب فى موكب الحضارة الإسـلامية كتاب النثر، ط٣، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٣، ص٧٠٩. محمد تقى بهـار: سبك شناسى يا تطور نثر فارسى، مج٢، طهران، ص٦٥.

(٣) الراوندى: راحة الصدور وآية السرور، ص٢٦٧. كيانوش مايلى: نظرى اجمالى بر تاريخ أدبيات فارسى، تهران، ١٣٧٣، ص٢٦.

Percy Sykes , A History of Persia, vol.2, c 3 , New York, 1963, p66.

(٤) العروضى السمرقندى: جـهار مقاله، ص٢١، ٢٠. حميد نيـر نورى: سير وتكامل آيين=

يعد هذا الكتاب من أوائل الكتب المصنفة التى ظهرت فى النثر الفارسى وبدأت به مرحلة النثر المصنع ثم شاعت الدعوة إلى هذا الأسلوب، وذكر المؤلف فى مقالة الكتابة التى تبين منهاج أدباء الفرس فى دروس الأدب. أن الكاتب الذى يريد أن يرقى بأسلوبه و يبلغ درجة عالية لابد أن يأخذ من كل علم نصيبا، ومن كل أستاذ نكتة، ويسمع من كل حكيم لطيفة، ويقتبس من كل أدب طرفة، وينبغى أن يعتاد قراءة كلام رب العزة، وأخبار المصطفى، وآثار الصحابة، وأمثال العرب، وكلمات العجم، ومطالعة كتب السلف، والنظر فى صحف الخلف[1] ويؤكد المؤلف أن الكاتب العاقل، والأديب الفاضل جمال للمُلك، وأعظم رفعة للمَلك[2]. كما يعتبر كتاب جهار مقاله من أقدم الكتب الفارسية التى عالجت جوانب من الحياة الأدبية والعلمية فى بلاد ما وراء النهر منذ القرن الثالث الهجرى حتى منتصف القرن السادس الهجرى . ويعد نظامى عروضى سمرقندى واحدا من رواد النثر الفارسى الذين وضعوا القواعد للكتابة فى فن الإنشاء، فهو موجز فى ألفاظه كبير فى معانيه ابتعد عن التصنع فى اللفظ وعن التكلف فى العبارات كما ابتعد عن الحشو والإطناب الممل مما جعل عباراته لطيفة وموضوعاته جذابة. ومن ثم يمكن أن يعد هذا الكتاب من حيث سلامة الإنشاء وأسلوب العبارة، ونسج الكلام فى طليعة الآثار الفارسية المنثورة، كما يعد نموذجا للنثر الفارسى، كما

=كشورداری ایرانیان از کهن ترین زمان تا امروز، سخرانهای دورهء جلسات سخرانی وبحث در بارهء آئین کشور داری إیرانیان، ۱۳۵۳، ص۲۸۹. ذبیح الله صفا: تاریخ أدبیات در إیران، جلد دوم، ص۹٦۱. نصرت الله حکیم الهی: تاریخ إیران از تأسیس سلسلة طاهریان تا حمله مغول، ص۱۲۷.

(۱) أحمد أمين وزكى نجيب محمود: قصة الأدب فى العالم فى الأدب القديم وأدب العصور الوسطى، جـ۱، ص٤٤٠. محمد نور الدين عبد المنعم: دراسات فى الشعر الفارسى، ص۲۰.

(۲) العروضى السمرقندى: جهار مقاله، ص۳۳.

يعتبر لسلاسة أسلوب الكتاب وجمال عباراته نموذجا يقتدى به الكتاب والأدباء من حيث إنشائه وأسلوبه(١).

بدأ أسلوب النثر الفارسى فى الأفول مرة أخرى منذ أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى، ولكن ذلك لم يدم طويلا، ولعل هذا الضعف يرجع إلى انهيار الدولة السلجوقية وظهور الدويلات المختلفة التى كان أكبرها الدولة الخوارزمية التى استقلت عن الدولة السلجوقية وأضحت دولة كبرى بعد ذلك(٢).

واستخدم النثر الفارسى منذ ظهوره حتى الآن للتعبير عن الموضوعات المتنوعة والأفكار والمناحى المختلفة كالخطابة، والرسائل الديوانية والقصص، والموضوعات العلمية والتصوف والتاريخ والتراجم والمسائل الدينية(٣).

١ - الخطابة:

كلمة عربية بمعنى الخطاب يجاهر به الخطيب، وهى رسالة نبيلة، ومهمة عظيمة، والخطابة وظيفة القادة ولسان الزعماء. وتشتمل على السجع المنمق والجمل المرصعة والأساليب التى تثير فى النفس المهابة والخوف. والخطابة قسمان: خطابة سياسية تصدر من الخليفة أو الأمير أو القائد العام للجيش للحث على الزحف. وخطابة دينية تحث على فضيلة من الفضائل، وتحمل على اكتساب خلق من الأخلاق فى أسلوب من الترغيب والترهيب(٤).

---

(١) العروضى السمرقندى: المصدر نفسه، ص ١. السباعى محمد السباعى: النثر الفارسى، ص٣٢١

(٢) السباعى محمد السباعى: المرجع نفسه، ص ٢٠، ٢١.

(٣)حسين الحاج حسن: أعلام فى النثر العباسى،ص٣٨. السباعى محمد السباعى: المرجع نفسه، ص٤٦

(٤) إبراهيم على أبو الخشب: تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ص ٣٩١، ٣٩٩.

وكانت الغالبية العظمى منهم من الصوفية[1] ومن ثم شاع فى هذا العصر الوعظ والتذكير بالآخرة. وكان الوعظ يمثل شكلا هاما من أشكال الخطابة فى إقليم الصغد فى العصر السلجوقى. يقول سبط بن الجوزى: " إن القرنين السادس والسابع الهجريين، كانا عصر الوعظ ؛ حيث كان الوعظ يقرأ على الشيوخ كما يقرأ الحديث والفقه وأصبحوا فئة كبيرة خلفت فئة القصاص القدامى، بل مزج بعضهم بين القصص والكدية "[2].

ومن أشهر الوعاظ القاضى أحمد بن الحسين بن يوسف الخرقانى السمرقندى يعرف بماه اندرجبه يعنى القمر فى الجبة (ت٤٩٩هـ/ ١١٠٥م) كان من كبار الوعاظ بسمرقند، سمع من السيد أبى الحسن محمد بن محمد بن زيد الحسينى العلوى، روى عنه عمر بن محمد النسفى[3]. وأبو محمد محمد بن محمد بن أيوب القطوانى السمرقندى (ت٥٠٦هـ/ ١١١٢م) كان يمتلك من روعة البيان وقوة التأثير ما يأسر به القلوب، ويمتلك به زمام جمهور المستمعين، فكان له حظ وقبول من الخاص والعام[4] وأبو الليث أحمد بن عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل النسفى السمرقندى (ت٥٢٢هـ/ ١١٢٨م) كان من الوعاظ البارزين فى سمرقند سمع الحديث وتفقه ووعظ، وكان حسن السمت، قدم بغداد فوعظ الناس، ثم عاد إلى سمرقند فقتله قطاع الطريق[5].

ومن أشهر الخطباء أبو الحسن على بن إبراهيم بن نصرويه بن سختام بن هرثمة بن إسحاق بن عبد الله بن أسكر بن الخطيب السمرقندى

---

(١) ابن الجوزى: تلبيس إبليس، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٣٩٣.

(٢) سبط بن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، ص٢٩.

(٣) ابن الأثير: اللباب فى تهذيب الأنساب، جـ١، ص٤٣٤.

(٤) الذهبى: المشتبة فى الرجال، جـ٢، ص٥٣٢. سبط بن الجوزى: المصدر نفسه، جـ٨، ص٤٣.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص٢٣٦.

(ت٤٤٠هـ/ ١٠٥٢م) وهو أخو الإمام أبو إسحاق بن إبراهيم الخطيب صهر السيد الإمام أبى شجاع العلوى وأستاذه فى الأصول، وكان من مشاهير العلماء رحل إلى خراسان وحدث بها وسمع منه، وروى عنه الإمام أبو المظفر منصور السمعانى والقاضى أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المروزى[١].

ويعد شمس الملك نصر بن إبراهيم بن نصر سلطان بلاد ما وراء النهر (ت٤٩٢هـ / ١٠٩٨م) من أفاضل الملوك علما ورأيا وحزما وسياسة، كان مدرسا وخطيبا فصيحا خطب على منبر سمرقند[٢]. وأبو القاسم عبيد الله بن عمر بن محمد بن أحيد الخطيب الكشانى (ت٥٠٢هـ / ١١٠٨م) كان خطيبا فاضلا مشهورا، ثقة عالما مكثرا من الحديث سمع أبا عبد الله محمد ابن الحسن الباهلى، وسمع منه جماعة من المتقدمين، وروى عنه أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكشانى[٣].

وأحمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن صالح الوذارى (ت٥٠٣هـ/ ١١٠٩م) كان خطيب قرية وذار بسمرقند، صالحا سديدا، سمع أبا حفص عمر بن منصور بن حبيب الحافظ وغيره وكان من جيران أبى حفص عمر النسفى مواظبا على حضور مجالس إملائه[٤]. والشيخ الفقيه الفاضل أبو الحسن ويقال أبو الفضل محمد بن الحسن بن الحسين بن محمد ابن إسحاق بن موهوب بن عبد الملك بن منصور السمرقندى (ت٥٨٢هـ/ ١١٨٦م) الخطيب بسمرقند، قرأ القرآن الكريم على أبى الحسن على بن

---

(١) السمعانى: الأنساب، جـ٢، ص٣٨٥.

(٢) ابن الصلاح الشهرزورى: طبقات الفقهاء الشافعية، جـ٢، ص٨٩٣.

(٣) السمعانى: الأنساب، جـ٥، ص٧٤.

(٤) السمعانى: المصدر نفسه، جـ٥، ص٥٨٢.

محمد السمرقندى وتفقه على أبى الحسن بن عطاء، سمع من القاضى أبى المحامد محمود بن مسعود السغدى، وحدث ببغداد[١].

كما كان الشيخ الأجل الفاضل أبو بكر عبد الله بن أبى الحسن على بن أبى بكر بن الخليل الفرغانى الخطيب (ت ٦١٦هـ/ ١٢١٩م) من أشهر الخطباء، سمع من أبى عبيد الله محمود ابن على قاضى سمرقند، وأبى محمد بن أحمد بن محمود الصابونى. وخرج لنفسه أربعين حديثا وحدث ببلده، وببغداد وغيرها من البلاد، تولى الخطابة بسمرقند وكان بليغا حسن العبارة، له معرفة جيدة بالأدب، مات شهيدا بيد التتار لما دخلوا سمرقند[٢].

٢ - الكتابة وديوان الرسائل:

يقصد بها مجموعة الرسائل التى ألفت لبيان طريقة الكتابة وآدابها، ويمكن تقسيم الرسائل إلى قسمين: السلطانيات والإخوانيات، والمقصود بالسلطانيات الرسائل المتبادلة بين السلاطين والأمراء. ويقصد بالإخوانيات الرسائل المتبادلة بين طبقات الشعب المختلفة[٣] ويرأس هذا الديوان شخص يطلق عليه الرئيس أو صاحب ديوان الرسائل، وهو فى الواقع رئيس ديوان الإنشاء السلطانية، يأتمر بأمره عدد كبير من الموظفين والمحررين المنشئين الذين كانوا ينعمون بثقة الدولة ويحفظون أسرارها[٤] " فهم بحق نظام الأمور، وكمال الملك، وبهاء السلطان، والألسنة الناطقة عن الملوك، وخزائن أموالهم وأمناؤها على رعيتهم وبلادهم "[٥].

---

(١) المنذرى: التكملة لوفيات النقلة، مج١، ص٦١.

(٢) المنذرى: المصدر نفسه، مج٢، ص ٤٨٧، ٤٨٨.

(٣) السباعى محمد السباعى: النثر الفارسى، ص١٢١. مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمدانى، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٦٧، ٦٨.

(٤) أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة فى التاريخ والحضارة، ص٢١٠. عباس إقبال: الوزارة فى عهد السلاجقة، ترجمة أحمد كمال الدين حلمى، ١٩٨٤، ص٥٢، ٥٣.

(٥) يحيى الخشاب: التقاء الحضارتين العربية والفارسية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص١٩، ٢٠.

كان ديوان الرسائل والإنشاء يشرف على جميع المكاتبات الرسمية والمراسيم التى تصدر عن السلطان إلى الحكام والولاة وغيرهم، ويعهد إلى صاحبه بتنظيم علاقة الدولة فى الداخل والخارج[١] وعليه أن يحضر المجالس التى كان يعقدها السلطان لسماع المظالم ويقوم بتسجيل أهم الملاحظات[٢].

كان يشترط فى صاحب ديوان الرسائل السرية والكفاءة[٣]، وأن يكون ملمًا باللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والتاريخ، عارفًا بالثقافتين العربية والفارسية[٤]. ومن ثم تميز كتاب الدواوين بسعة الثقافة وعمق الأفكار وترتيب المعانى، وممن قام بالعمل فى ديوان الرسائل بهاء الدين محمد بن على بن محمد بن الحسن الظهيرى الكاتب السمرقندى، وهو أحد مشاهير المترسلين والكتاب فى عصر السلاجقة، ارتقى فى المناصب حتى شغل منصب صاحب ديوان الإنشاء لطمغاج خان، وله كتاب أغراض السياسة فى أعراض الرياسة، ويشتمل الكتاب على لطائف كلام الملوك من عهد جمشيد إلى عهد قلج طمغاج خان إبراهيم الذى أهدى إليه الكتاب، والكتاب فى جملته مصنوع مزين حافل بالشواهد والأشعار العربية والفارسية[٥].

وكان سديد الدين أو نور الدين محمد بن محمد بن يحيى بن طاهر بن عثمان العوفى البخارى من كبار علماء بلاد ما وراء النهر فى أواخر القرن السادس الهجرى ومنتصف القرن السابع الهجرى، ولقب بالعوفى لاتصال نسبه بالصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف، نشأ العوفى فى أسرة من

---

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص١٦٤ .

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١، ص٤٤، ٤٣ . ابن مماتى: قوانين الدواوين، ص٦٦ .

(٣) أحمد كمال الدين حلمى: المرجع نفسه، ص٢١٠ .

(٤) أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ١، مكتبة الأسرة، ١٩٩٧م، ص١٨٧، ١٨٩ .

(٥) أحمد كمال الدين حلمى: المرجع نفسه، ص٢٨٢. أمين عبد المجيد بدوى: القصة فى الأدب الفارسى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤، ص٣٢٩.

فضلاء وعلماء بلاد ما وراء النهر، ولد ببخارى وتلقى معارفه الأولى بها ثم ارتحل عنها فى طلب العلم فطوف بأكثر بلاد ما وراء النهر، وسكن سمرقند بعد فراغه من تحصيل علوم عصره سنة (٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م)، وتولى ديوان إنشاء قلج ارسلان خاقان نصرة الدين عثمان بن إبراهيم، وظل صاحب الديوان حتى نهاية الدولة الخانية (٦٠٩هـ / ١٢١٢م)[١].

٣ - القصص والحكايات

نعنى بالقصة الفارسية هذا الجانب القصصى من الأدب الفارسى الإسلامى. ولا ريب أننا إذا تحدثنا عن الجانب القصصى من الأدب الفارسى فإنما نتحدث عن أوسع جوانب هذا الأدب وأكثرها إشراقا وأرسخها أركانا، والقصص الفارسى قديم قدم الأدب الفارسى[٢]. وتتألف القصة عادة من ثلاثة عناصر رئيسية: الموضوع والشخصيات والحوار، وتدور القصة حول سلسلة من الأحداث أو شخصية من الشخصيات أو فكرة من الأفكار تجرى فى بيئة معينة فيكون العنصر السائد فى القصة سلسلة الحوادث أو الشخصية أو الفكرة أو البيئة.

ينقسم القصص الفارسى الإسلامى من حيث الشكل والصورة إلى قسمين رئيسيين: الأول الرواية وتسمى فى الفارسية دستان أو داستان، والثانى الحكاية ويسميها الفرس حكايت. فالرواية يعنى بها القصة المطولة التى استأثر بها الشعر فيما بعد فتحولت إلى ما يسمى فى عصرنا الحاضر بالملحمة. أما الحكاية فهى القصة الفارسية القصيرة وساهم فيها النثر والشعر على السواء[٣]، ومن أهم الكتب التى مثلت هذا النوع من الأدب كتاب "سندباد

---

(١) سعيد نفيسى: تاريخ نظم ونثر در ايران، جلد أول، ص٩٧.

(٢) أمين عبد المجيد بدوى: الجانب القصصى فى إيران ومصر، ص٩٥.

(٣) أمين عبد المجيد بدوى: القصة فى الأدب الفارسى، ص٨٧ - ٩١.

نامه»[1] لبهاء الدين محمد بن على بن محمد بن الحسن الظهيرى الكاتب

(٤) تتلخص الحكاية الرئيسية بكتاب سندباد نامه فى أنه كان ببلاد الهند ملك اسمه كورديس جمع بين العدل وكريم الخصال ورزقه الله على الكبر غلاما تنبأ له المنجمون بعلو نجمه وتعرضه فى مرحلة من عمره لخطر على حياته ينجو منه، فلما شب عهد بتأديبه إلى سبعة من الفلاسفة بذلوا الجهد فى تعليمه عشر سنين دون جدوى، فيئسوا منه وكان من بينهم حكيم يدعى سندباد نامه يرجحهم علما وفضلا أخذ على عاتقه وحده المضى فى تأديبه، لكنه لم يكن فى تأديب الغلام أكثر توفيقا من بقية الحكماء، فلما كلمه الملك فى ذلك أجاب بأن الأمور مؤقتة بأوقاتها وقد أدبرت أيام النحس وأقبلت طلائع السعد، وبشره بأنه سيعلمه كل أنواع العلوم والمعارف فى ستة أشهر فلما انقضى الأجل، كان الأمير قد ألم بكل أنواع العلوم والمعارف. أزمع السندباد المثول بالغلام بين يدى الملك، ولكنه بعد؛ لأن رصد طالعه تبين له أنه سيبقى لسبعة أيام متواليه معرضا لخطر، فنصح الصبى بعدم الكلام طيلة هذه الأيام السبعة مع أى مخلوق وإلا كان فى ذلك هلاكه، ثم اختفى ولم يقل الفتى جوابا فى حضرة الملك فحملوا ذلك على خجله وأشاروا بإدخاله إلى الحريم عله يأنس بمن فيه فينطلق لسانه، وكان فى حريم الملك جارية تعشق الغلام، فلما ظفرت به صرحت له بهواها واستمالها إليه ووعدته بالعمل على توليه الملك بعد الخلاص من أبيه بالسم فاستنكر ذلك ونهرها، وخافت افتضاح أمرها، فشقت فى الحال ثيابها وصاحت مستغيثة وأسرعت فمثلت بين يدى الملك على هذه الصورة وطلبت إليه فى ذله أن ينتصف لها من الأمير، وانخدع الملك بكلام الجارية وأمر بإخراج الأمير وقتله. وكان للملك سبعة وزراء عرفوا برجاحة العقل وحسن التدبير أجمعوا أمرهم على تخليص الفتى البرىء من هذه المكيدة، فكان كل منهم يتقدم إلى الملك فى يوم من الأيام يشير عليه بالتريث وعدم العجلة فى قتل الأمير خوف الندم، وهكذا حتى تنقضى الأيام السبعة وينجوا ابن الملك من الخطر الذى تنبأ به المنجمون وينطلق لسانه من عقاله ويقف الملك على عقله وكماله، وينزل بالجارية ما تستحق من العقاب. وفى أثناء ذلك يقص الأمير مجموعة من الحكايات فيشكر الملك السندباد على جهده فى حسن تربيته ولده ويتنازل للأمير عن الملك ويعتزل الحياة. الظهيرى السمرقندى: سندباد نامه، ترجمة أمين عبد المجيد بدوى، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٧٨، ص١٨ـ٢٢. أمين عبد المجيد بدوى: القصة فى الأدب الفارسى، ص ٣٣١، ٣٣٢.

السمرقندى (ت٥٥٦هـ/ ١١٦٠م)[١] وهذا الكتاب فى القصص والحكايات المشتملة على المواعظ والنصائح والحكم والمصالح فى سيرة الملوك مع الرعايا وحسن رعايتهم للرعية. نسب هذا الكتاب إلى الهند والفرس وترجم من الهندية إلى الفهلوية منذ عدة قرون قبل الإسلام وبقيت ترجمته الفهلوية حتى القرن الرابع الهجرى، ومؤلفه فيما يقال حكيم هندى اسمه سندباد نامه كان يعيش فى زمان ملك من ملوك الهند، وذهب محمد بن على الظهيرى السمرقندى إلى أن الأصل الفهلوى لم يكن ترجم حتى عصر الأمير نوح بن نصر السامانى فأمر هذا الأمير أبا الفوارس القناوزى بأن يترجمه إلى الفارسية ويزيل ما تطرق إليه من تفاوت واختلال ويصححه، فنهض بهذه المهمة سنة (٣٣٩هـ/ ٩٥٠م) .

غير أن عبارة هذه الترجمة على حد قوله" منحطة للغاية وعارية وعاطلة من كل زينة" وفى منتصف القرن السادس الهجرى تناول الازرقى الهروى الشاعر الخراسانى هذه الترجمة فنظمها كلها أو بعضها شعرا وقدمها إلى والى خراسان، ثم جاء بعد ذلك بهاء الدين محمد بن على بن محمد بن الحسن الظهيرى الكاتب السمرقندى، فاخرج ترجمة القناوزى من بداوتها وكسادها وألبسها ثوبا أدبيا جديدا مزينا بالأمثال والأحاديث والآيات والأشعار الفارسية والعربية، وجعله باسم السلطان قلج طمغاج خان بن قراخان برهان مسعود[٢]. ويعد كتاب السندباد قصة لها بداية ونهاية تستوعب بينها حكايات هادفة، يرويها أشخاصها فى مناسبات ومشاهد مختلفة، ومجموع هذه

---

(١) الراوندى: راحة الصدور، ص٢٩٤. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص٩. ذبيح الله صفا: دور نمايى از فرهنك ايرانى، ص١٢٥.

(٢) الظهيرى السمرقندى: المصدر نفسه، ص٧، ٥. أمين عبد المجيد بدوى: المرجع نفسه، ص٣٢٨، ٣٢٩.

الحكايات هو مادة القصة وقوامها، فهى أشبه بنظام عقد ينتظم حباته، فإذا انفرطت وتبددت هذه الحبات لا يكون غير خيط زهيد[١].

وكان سديد الدين أو نور الدين محمد بن محمد بن يحيى بن طاهر بن عثمان العوفى البخارى، قد سكن سمرقند سنة (٦٠٠هـ/١٢٠٣م) وعند حملة المغول فر إلى السند، وألف كتاب جوامع الحكايات ولوامع الروايات الذى يعتبر من أهم مؤلفاته؛ لما تضمنه من فوائد تاريخية وأدبية لا توجد فى غيره[٢].

يحتوى هذا الكتاب على أربعة أقسام، كل قسم منها به خمسة وعشرون بابا كتبه العوفى بأسلوب جيد وعبارة واضحة. القسم الأول حكايات عن أشخاص أسطوريين وتاريخيين وطبقات متفرقة من رجال الحكم والعلماء والشعراء. القسم الثانى حكايات قصيرة فى بيان الفضائل الإنسانية. القسم الثالث حكايات تمثل الرذائل الآدمية. القسم الرابع موضوعات متفرقة من قبيل الأدعية التى يدعوها الغريب لتصونه وتنجيه من المخاطر وحكايات من عجائب الخليقة[٣]. وينتمى كتاب جوامع الحكايات إلى ذلك الطراز من المجموعات الأدبية الذى انتشر بشكل خاص فى الأدب العربى وبالأخص مجموعة القصص التاريخية واليومية التى يقصد بها النصيحة والموعظة الحسنة وأحيانا الإمتاع[٤].

أما الحكاية التمثيلية فيراد بها تلك الحكايات التى تقوم مقام الشاهد

---

(١) الظهيرى السمرقندى: سندباد نامه، ص١٧.

(٢) أمين عبد المجيد بدوى: القصة فى الأدب الفارسى، ص٣٦٠، ٣٦١. كراتشكوفسكى: تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ط٢،دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٨٧، ص ٣٥٤، ٣٥٥.

(٣) أمين عبد المجيد بدوى: المرجع نفسه، ص٣٦٢.

(٤) كراتشكوفسكى: المرجع نفسه، ص٣٥٥.

والمثل، فالكاتب أو الشاعر يسوق قضية فيعززها أو يأتى برأى فيدلل على صحته بحكاية من هذه الحكايات كما نستشهد نحن بحكمة أو كلمة مأثورة. فيتحدث النظامى العروضى السمرقندى فى مقالاته الأربع عن شرائط الكتابة والكتاب والشعر والشعراء والنجوم والمنجمين والطب والأطباء، ويردف كل مقالة بعشر حكايات طريفة مما اتفق وقوعه لمشاهير هؤلاء تصديقا لما ذهب إليه فى هذه المقالات[١]. ومن ثم نمت الكتابة المنهجية التأليفية فى هذا العصر، واكتملت أسباب نضجها، وتميز الكثير من الكتب بأسلوب العصر الذى لا يخلو من موجة التصنع والسجع والبديع بأنواعه المختلفة وكثر المؤلفون من لغويين ومؤرخين ورحالة وغيرهم وخضعت مؤلفاتهم لأسلوب العصر[٢].

ومن الأدباء البارزين أبو حفص عمر بن أحمد بن محمد بن الحسن الكشانى الأديب (ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) مشهور بالتأديب[٣]، وأبو سعد بن أبى اليمن السمرقندى (ت٤٧٣هـ / ١٠٨٠م) كان يتولى بغداد وعزل عنها وله نوادر[٤] وأبو محمد عبد الجليل بن محمد بن عبد الموجود بن نصر الضحاك (ت ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م) كان من خلفاء الدار الجوزجانية بسمرقند، روى عن أبى حفص عمر بن منصور بن خنب البزاز الحافظ، روى عنه أبو حفص عمر النسفى[٥]. وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن عمر بن الأشعث السمرقندى (ت٥١٦هـ/ ١١٢٢م) كان من كبار حفاظ الحديث ورزق حظا من الأدب إذا قرأ أعرب وأغرب[٦].

---

(١) أمين عبد المجيد بدوى: المرجع نفسه، ص٢٩٦.

(٢) مريزن سعيد مريزن عسيرى: الحياة العلمية فى العراق، ص٤٠٠.

(٣) الصيرفينى: المنتخب من السياق، ص٥٥٧.

(٤) ابن الفوطى: تلخيص مجمع الآداب فى معجم الألقاب، جـ٤، ص٩١٦.

(٥) السمعانى: الأنساب، جـ٥، ص٦٨٥.

(٦) ابن الجوزى: المنتظم، جـ٩، ص٢٣٨. الذهبى: تذكرة الحفاظ، جـ٤، ص١٢٦٣، ١٢٦٤. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص١٩١.

كما كان أبو الفضل محمد بن عمر بن محمد الاشتيخنى السغدى (ت٥٥٠هـ/ ١١٥٥م) من أشهر أدباء العصر أديبا فقيها بارعا صالحا، كتب بنفسه أمالى أئمة سمرقند، تفقه على الإمام مسعود بن الحسين الكشانى، سمع منه أبو المظفر السمعانى[١]. والشيخ الأديب أبو محمد عبد الرحيم بن على بن نيازى بن على بن النعمان النسفى (ت٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) سكن سمرقند وكان أديبا سديدا، سمع أبا الحسن محمد بن محمد بن زيد الحسنى العلوى، روى عنه الإمام أبو شجاع بن محمد بن عبد الله البسطامى[٢].

هكذا بلغ النثر قمة تطوره فى مدن إقليم الصغد خلال العصر السلجوقى لاتخاذه أسلوبا جديدا هو أسلوب النثر الفنى المتكلف[٣] حيث صب الكتاب أفكارهم فى قوالب جميلة من الألفاظ المزخرفة والمحسنات والاستعارات وما شابهها، كما كثرت الاستشهادات المأخوذة عن النظم العربى، وبلغ اعتقاد الكتاب خلال هذا العصر أن النثر البسيط البعيد عن التكلف نثر ركيك لا جدوى منه[٤].

ب - الشعر

هو الكلام الموزون[٥] ويعرفه نظامى عروضى السمرقندى فيقول: "الشعر صناعة، بها الشاعر يؤلف المقدمات الموهمة، والقياسات المنتجة على وجه يجعل المعنى الصغير كبيرا والكبير صغيرا، ويرد الحسن فى زى القبيح،

---

(١) السمعانى: المصدر نفسه، جـ٢، ص٩١. القرشى: الجواهر المضية، جـ٣، ص٢٩١. ابن نقطة: تكملة الإكمال، جـ٢، ص١٧٠.

(٢) السمعانى: المصدر نفسه، جـ٥، ص٧٠١.

(٣) على الشابى: الأدب الفارسى فى العصر الغزنوى، ص٣٥٩.

(٤) عبد العزيز مصطفى بقوش: تطور النثر الفارسى فى إيران والهند، ص١٨.

(٥) خانلرى: أوزان الشعر الفارسى، ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم، القاهرة، ١٩٧٨، ص١١. عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٩١.

ويجلو القبيح فى صورة الحسن، ويثير بالإيهام القوى الغضبية والشهوانية فيحدث بهذا الإيهام للطباع انقباضا وانبساطا، وتنشأ فى العالم الأمور العظام[١] فالشعر هو لسان الأمة المعبر عن أمالها وآلامها، فهو كالكائن الحى ينمو فى وجدان الشعب، ومع نمو فكر الأمة فلا يمكن فصله عن روح الشعب وطبيعته[٢]. فكان الشعر انعكاسا للأحوال والأوضاع السياسية والاجتماعية فى إقليم الصغد وذلك لمعرفة الشاعر بما يحيط به وتأثره بما حوله واهتمامه بالمحيط المادى إلى جانب اهتمامه بالخيال[٣].

ازدهر الشعر فى مدن إقليم الصغد فى العصر السلجوقى ووصل إلى قمة تطوره وحظى الشعراء باهتمام كبير من قبل سلاطين السلاجقة والحكام القراخانيين، حتى أصبحت مدن الإقليم مراكز أدبية عظيمة الشأن آنذاك. وكان الشعر فى بداية العصر السلجوقى يتميز بمحاكاة الشعر الغزنوى، ثم نجح شعراء إقليم الصغد خلال العصرالسلجوقى فى ابتكار أساليب شعرية جديدة تعد سمة بارزة لهؤلاء الشعراء[٤]، وكانت هذه الأساليب انعكاس مضامين الشعر العربى وأفكاره وأسلوبه[٥]. كذلك اتسعت موضوعات الشعر الفارسى واتجهت إلى أبسط الأساليب وأقربها إلى الطبيعية، وأبدع الشعراء فى وصف المناظر الطبيعية وتحولت بعض أشعارهم فيها إلى لوحات فنية بارعة[٦]. فمثلا

---

(١) نظام العروضى السمرقندى: جهار مقاله، ص٣٤.

(٢) محمد السعيد عبد المؤمن: الرؤية والنسيج فى الشعر الإيرانى المعاصر، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٨٩.

(٣) محمد نور الدين عبد المنعم: دراسات فى الشعر الفارسى حتى القرن الخامس الهجرى، ص٣٦.

(٤) ذبيح الله: تاريخ أدبيات در إيران، مج ٢، ص٢٩٠، ٢٩١.

(٥) مصطفى الشكعة: الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية، ص١٥٩، ١٦٠.

Omar Pound, Arabic and Persian Poems in English, 1970, p24

(٦) محمد نور الدين عبد المنعم: المرجع نفسه، ص٣٦.

كان اتجاه الشاعر السوزنى الأدبى صوب الغزل والمديح والوصف، وكان للبيئة الجغرافية تأثير كبير على صوره الشعرية التى يغلب عليها الوصف الخارجى والتلون بجمال البيئة والتأثير بمفاتن الطبيعة: فكثيرا ما يبدأ مقدمات قصائده المدحية بوصف هذه الطبيعة الخلابة، وكثيرا ما يذكر أسماء الطيور والحيوانات ويمزج بينها وبين ممدوحيه فيقول:

من خوفه يأخذ من التذر وحقه من الصقر
والشاه من الذئب والحمار الوحشى من سطوة الأسد

ويقول أيضا على النمط السابق:

فى حمى البطل يخرج الكبك والتذر والكتكوت
ملتقط الحب بين جمال الطبيعة التى يحياها
وجمال الحبيب أو المعشوق الذى يهواه

وربما كانت الطبيعة وجمالها من العوامل التى دفعت الشاعر إلى الاتجاه الحسى المادى فى غزلياته فى عصر مال الغزل إلى الناحية الصوفية البحتة. ويقول السوزنى:

كلما أمعنت فى السرو والقمر ذات ليلة أو نهار
طاف أمام عينى طائف من قده وخده.
فقلت للقمر: يا من تكون نظيرا لخد معشوق
وللسرو: أيها الشبيه بقد محبوبى.
فيشتعل القمر فى سمائه والسرو فى رياضة
من هذا القول ويطول عنقه فخرا
وإذا ما كان لقامة محبوبى صفته السرو

وكان لعارض محبوبى شبه القمر[1].

تعددت موضوعات الشعر فى مدن إقليم الصغد فى ذلك العصر، فطرق الشعراء أبواب المدح والهجاء والوعظ والحكمة والمسائل العرفانية والغزل[2]، بعد أن تزودوا بالثقافات العلمية واطلعوا على ما فيها من دقائق المسائل[3] وكان المديح أهم هذه الموضوعات الشعرية التى راجت فى الصغد، حيث أقبل الشعراء عليه لينالوا العطاء من قبل السلاجقة والحكام[4]. وكان المدح يخرج دون عاطفة صادقة معتمدا على الأسلوب والمبالغة.

أما الهجاء فكان يعبر عنه بصدق عن نفسية ناظمة مع ميل إلى المبالغة والسخرية أو التجريح والفحش[5]، وحظيت بلاد ما وراء النهر بعدد وافر من الشعراء المادحين، وكان جزء " كبير" من قصائدهم مرتبطًا بخاقانات بلاد ما وراء النهر وخصوصًا الخاقان العظيم خضر ابن إبراهيم، ويعد الشاعر شهاب الدين عمعق البخارى ملك شعراء هذا الأمير.

---

(١) محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى، ص٨٤، ٨٥.

(٢) الأبشيهى: المستطرف فى كل فن مستظرف، ص٦٤٥. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، ص٢٤١. شوقى ضيف: عصر الدول والإمارات، ص٥٦٥. محمد جعفر محجوب: سبك خراسانى در شعر فارسى، جابخانه ديبا، انتشارات فردوسى وجامى، ص٦٣٧. محمد محمدى: الأدب الفارسى، بيروت، ١٩٦٧، ص١٧٨، ٢٠٤. محمد نور الدين عبد المنعم: دراسات فى الشعر الفارسى حتى القرن الخامس الهجرى، ص٤٣، ٤٩، ٥٠.

(٣) ذبيح الله صفا: تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران، ص١٥٧. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، ص٢٤١.

(٤) ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، مج٢، ص٦٩٧.

Julie Scott, Medieval Persian Court Poetry, New York , 1987,p40.

(٥) أحمد كمال الدين حلمى: عمر الخيام، ص ٩٧، ٩٩

وغرض الهجاء والهزل يعد من الأغـراض الشعرية التى ارتفع شأنها فى هذا العصر حتى بلغ أقصى درجات رقيـه بحيث لم يكن لـه مثيل سابق عليه أو لاحق لـه[1]، وتعددت الآراء فى أسبـاب رواج هذا الفن الذى ارتبط بهذا العصر، ومنها:

١ - تشجـيع السلاطين والأمراء للشـعراء على تبادل الهـجاء من أجل الترويح عن أنفسهم وخواطرهم.

٢ - الأوضاع الاجتماعية لهذا العصر كـان لها تأثيرها على رواجه.

٣ - ويرجـعـه البـعض بسـبب التـعصب الـدينى، وشيـوع الفسـاد الأخلاقى[2].

على كل حال وصل الهجاء فى هذا العصـر إلى الحد الذى كان التلاميذ فيه والأسـاتذة يتبادلون الهجـاء، وكانت بلاد ما وراء النهر أكـثر المناطق التى انتشـر فيـها غرض الهـجاء والهـزل، ويعد السوزنى فى الـواقع زعيم هؤلاء الشعراء فى هذا العـصر، وكان شعراء عـصره الجادون يتعرضـون لسخرياته، وكان يرميهم بسهام أشعاره[3].

ومن كبار الشعراء عمعق وهو أبو النجيب شهاب الدين عمعق البخارى (ت٥٤٣هـ / ١١٢٩م) أحد أساتذة بلاد ما وراء النهـر الذين ذاعت شهرتهم، مدح السلطان سنجـر ونال عطاءه. وارتبط بالسلطان خضـر خان ـ من حكام أفـراسيـاب - فى بلاد مـا وراء النهر، وأصـبح أبرز شـعراء الدولة وامـتلك الغلمان والجوارى والجـياد والأموال[4]. وكان عمعق يمتـدح الشاعر رشيدى

---

(١) ذبيح الله صفا: تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران، ص١٥٩.

(٢) محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى، ص٦٩، ٦٨.

(٣) محمد محجوب: سبك خراسانى در شعر فارسى، ص٦٣٦، ٦٣٥.

(٤) دولتشـاه: تذكرة الشعـراء، تصحـيح وتمهيد مـحمد اقـبال، ١٩٣٩، ص٣٧. سعـيد=

ويقر بفضله حتى ارتفع شأن رشيدى لدى السلطان خضر فدبت بينه وبين عمعق الوحشة[1] لدرجة أن عمعق وصف أشعاره فى السلطان خضر بعدم الملاحة فرد عليه رشيدى:

لقد ذممت أشعارى ووصفتها بعدم الملاحة وهذا جائز ولكن شعرى مثل الشهد والسكر ولا يكون الملح له موضع بين هذين أما أشعارك فهى لفت وباقلاء والملح لازم لك فيهما[2].

هذا ولعمعق دور لا ينكر على المرثية وطريقة نظمها، وهو الذى رثى أخت السلطان سنجر عندما استدعاه لذلك الغرض، غير أنه اعتذر عن عدم حضوره لأنه بلغ من الضعف مبلغا لم يمكنه من تلبية هذه الدعوة، وأرسل المرثية.. منها هذان البيتان:

فى حين ينبت الورد فى أرض البستان
ذهبت تلك الوردة المتفتحة، واختفت فى التراب
وفى حين يأخذ الغصن من السحاب قطر الماء

=نفيسى: تاريخ نظم ونثر در إيران، جلد أول، ص٩٦. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص٥٣٧. عبد العظيم رضايى: تاريخ ده هزار ساله ايران جلد سوم، جاب بنجم، ص١٤٢.

(١) عبد الحسين زرين كوب: سيرى در شعر فارسى، جاب سوم، طهران، ١٣٦٢، ص٤٦.

(٣) شعرهاى مرابه بى نمكى عيب كردى روابود شايد
شعر من همجو شكر وشهدست وندين دونمك نكونايد
شلغم وباقليت كفته تو نمك أى قلتبان ترا بايد

هدايت: مجمع الفصحاء، جـ١، الهند، ١٢٧١، ص٣٤٥. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، جلد دوم، ص٥٤٧.

أصبح نرجس هذا البستان الجميل بلا ماء[1].

نال عمعق لقب أمير الشعراء[2] كما لقب بسلطان العلماء، وأقر له الانورى بالأستاذية وسماه أستاذ الكلام[3]، وكان شعره غاية فى العذوبة والسلاسة، رقيق فى ألفاظه حيث كان يختار أخف الأوزان[4]. كما كان خصب الخيال على نحو يجعل شعره ينبض بالحركة والحياة[5]، وما كان منه مصنوعا قد أوقع الأساتذة فى حيرة. وتشهد قصائده المشحونة بألوان الصناعات والنظرات الفلسفية العلمية بأنه كان خبيراً بالعلوم المتداولة فى عصره. وكان دقيقا فى تشبيهاته، سليم الذوق جزل اللفظ واضح الفكرة، يخلو كلامه من الإبهام ويفيض رقة وإحساسا[6]. وخلف من بعده ديوانا زاخراً بالقصائد والرباعيات والقطع، كان يحتوى على سبعة آلاف بيت لم يبق منها سوى ٦١٤ بيتا. ويقال إنه انزوى فى أواخر أيامه وكان يرسل ابنه حميدى إلى مجالس السلاطين بدلا منه[7].

---

(١) دولتشاه: المصدر نفسه، ص٣٧. سعيد نفيسى: المصدر نفسه، جلد أول، ص٩٦. هدايت: المصدر نفسه، جـ١، ص٣٤٥. فخرى هروى: تذكرة روضة السلاطين، تبريز، ١٣٤٥، ص١٤.

(٢) عبد الحسين زرين كوب: المرجع نفسه، ص٤٦.

(٣) ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، جلد دوم، ص٥٣٧. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، ص١١٧

(٤) رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، ص١١٨. ذبيح الله صفا: عمعق بخارائى، مجلة مهر، شماره. ٤، سال سوم، ١٣١٤، ص٤٠٨.

(٥) أحمد كمال الدين حلمى: عمر الخيام، ص٣٢٥. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص٥٣٩. عبد الحسين زرين كوب: سيرى در شعر فارسى، ص ٤٦. محمد محمود إدريس: السلطان سنجر السلجوقى، ص١٣٤.

(٦) أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة فى التاريخ والحضارة، ص٣٢٥. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، جلد دوم، ص٥٣٩، ٥٤٠. ذبيح الله صفا: المقال نفسه، ص٤٠٧.

(٧) سعيد نفيسى: تاريخ نظم ونثر در إيران، جلد أول، ص٩٧. آقا بزرك: الذريعة،=

ويعد السوزنى السمرقندى من أشهر الشعراء وهو شمس الدين محمد ابن على السوزنى الملقب بتاج الشعراء (ت٥٦٩هـ/ ١١٧٣م) نشأ السوزنى فى بيئة انتشر فيها الهجاء بصورة منفرة بحيث يعد من خصائص هذا القرن. واشتهرت هجائيات السوزنى قدوة الجميع الذى ليس له نظير، وانتشر الهجاء بين الشعراء إلى الحد الذى كان التلميذ فيه لا يتورع من هجاء أستاذه. وعرف هذا العصر بعصر الهجاء، وبرز فيه شعراء كبار، وفاقت شهرة السوزنى أقرانه حتى قيل بأنه لم يسلم شاعر معاصر له من سيف هجائه، وبرع السوزنى فيه إلى الحد الذى نفر منه الجميع[١]. ومن الشعراء الذين عاصروه وتبادل معهم الهجاء عمعق البخارى (ت٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) والانورى (ت٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) ورشيد الدين الوطواط (ت٥٥٦هـ/ ١١٦٠م) ومعزى (ت٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) وأديب صابر (ت٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) وعلى شطرنجى ونظامى عروضى سمرقندى، وقد سبب الأذى لهم جميعا بلسانه الحاد[٢].

كان من أهم الظواهر الاجتماعية التى سادت عصر هذا الشاعر ظاهرة الاهتمام بالغلمان وخاصة الغلمان الأتراك، وكان هؤلاء الغلمان على درجة كبيرة من الحسن والجمال، فانتشر بين الحكام حبهم لهؤلاء الغلمان، وشاع

=جـ٩، ص٧٧٠. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، جلد دوم، ص٥٤١. ذبيح الله صفا: المقال نفسه، ص٤١١.

(١) ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، جلد دوم، ص٦٢٢. ذبيح الله صفا: تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران، ص١٥٩. عبد الحسين زرين كوب: المرجع نفسه، ص٤٧، ٤٨. محمد كامكار بارسى: رباعى ورباعى سرايان از اغاز تا قرن هشتم هجرى، تهران، ١٣٧٢، ص١١٧، ١١٨. محمد محجوب: سبك خراسانى در شعر فارسى، ص٦٣٦، ٦٣٥. محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى، ص٥١.

(٢) هدايت: مجمع الفصحاء، جـ١، ص٢٤٩. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص٦٢٢

بين الشعراء فى شعرهم ظاهرة الغزل بالمذكر، ويقال إن السوزنى سمى بذلك لعشقه غلاما تركيا كان يعمل بمهنة الخياطة يدعى كلاهدرو، ويقول له السوزنى متغزلا:

الاسم نجم والعرض قمر والشعر طيب الرائحة

واكتسب القمر والنجم منك النور وطيب الرائحة[1].

ومدائح السوزنى تشير إلى تقدير ممدوحيه له وعطاياهم فيقول فى ذلك:

أنا العبد الغريق فى بحر بره وإحسانه وأسبح فيه بيد وقدمى بالشكر والثناء[2]

كثر عدد ممدوحيه الذين كان معاصرا لهم ومن أشهرهم شمس الملك على بن حسين، وعلاء الدين محمد خان بن سليمان، وجلال الدين قدر طمغاج خان، وارسلان خان بن محمد ابن سليمان، وركن الدين مسعود بن حسن قلج طمغاج خان، كما مدح أسرة آل مازه وآل برهان رؤساء الحنفية ببلاد ما وراء النهر، ومدح أيضا اتسز خوارزمشاه والسلطان سنجر[3].

لما كان السوزنى متأثرا بالبيئة إلى أقصى مداها؛ نظم قصيدة كاملة تصل إلى ثمانية عشر بيتا فى مدح ممدوحيه، مزج فيها بين مدح ممدوحه ومدينة سمرقند:

أيها السيد وراس مال كرام سمرقند اسمك أكثر شهرة من اسم سمرقند.

ثقة الدين شمس الأمناء والحكماء معتمد الملك وخاصة وعامة سمرقند.

---

(١) محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى، ص٥٥.

(٢) محمد محمد يونس: المرجع نفسه، ص١١٣، ١١٤.

(٣) سعيد نفيسى: تاريخ نظم ونثر در إيران، جلد أول، ص٩٨. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، ص ٦٢٢.

فمنك الابن والأمين لسمرقند فالابن مفتى والأب إمام سمرقند.
إن لم يكن فى سمرقند من نعمة فكفى بحدك نعمة سابغة لسمرقند.
صارت سمرقند مثل دار السلام طيبا وسعادة فى كل مقام بما لك من عظمة وبهاء[1]

ظل السوزنى طوال حياته وحتى مشارف شيخوخته منخرطا فى غيه وفساده، منطلقا فى هزلياته وهجائياته وإن حافظ فى الوقت نفسه على ما ينشده من أشعار جادة لا تخرج فى موضوعها عن المدح والغزل، ثم صارت فى شيخوخته توبة واستغفاراً، ورغم شهرة السوزنى بالهجاء فإن ما أنشده فى هذا الغرض لا يتجاوز ثلث مجموع أشعاره فى هذا المجال وفاق أترابه[2].
وهذا واضح من قوله لممدوحه تاج الدين:

هناك شعراء قليلو القدر والقيمة من حدود مصر حتى أرض طمغاج.
أنا الأفصح بين كل الشعراء وأنا التاج على رأسهم جميعا.
ليس ثمة شاعر مثلى فى الجدل والهزل سواء فى الروم أو خلخ أو قيجاج[3].

كان من الطبيعى أن يحس السوزنى فى شيخوخته بما فعله فى فترة الشباب، وأن ما تبقى من العمر لا يستحق التمادى فى الغى والفساد، فكف عن الهزل والهجاء، واتجه إلى إنشاد الأشعار الرائعة فى التوبة والاستغفار

---

(١) أى سرو سرمايه كرام سمرقند — نام تو مشهور ترز نام سمرقند
شمس اميتان وصائبان ثقة الدين — معتمد شاه وخاص وعام سمرقند
از تو بسر صاين وامين سمرقند — بور وبدر مفتى وإمام سمرقند
كر بسمرقند هيج نعمت نبود — فر توبس نعمت تمام سمرقند
از خوشى جو دار السلام است — بافروزيب توهر مقام سمرقند
محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى، ٨٦، ٨٧.

(٢) محمد محمد يونس: المرجع نفسه، ص ١١٧، ١١٨.

(٣) محمد محمد يونس: المرجع نفسه، ص ١١٨، ١١٩.

وطلب الرحمة من الله عز وجل، وكان ذلك عندما وصل سن الستين[1]، ومن أجمل ما قاله السوزنى فى توبته قصيدة يعرض من خلالها ما كان فى حياته من سوء وفحش، وعنوان القصيدة هو: " توبة از كناهان" أى توبة عن الذنوب، وأولها:

حينما صار جسدى أميرا على أهواء قلبى
أقبل جيش من السفاهة نحو صدرى[2].

ومن روائعه فى الزهد والتوبة والاستغفار قوله:

بأعتابك أيها الإله الذى التجأت إليك من لطفك
ولقد دعوت بأعتابك مما اقترفته.

إلى أن يقول:

أنت تعلم ولا يخفى على الخلائق جمعاء
أننى أحضرت معى زاد التوحيد من أجل العز والجاه.
أنى جالب لك يا ربى أربعة أشياء لا توجد فى كنوزك العامرة
وهى الحاجة، والعدم، والذنوب، والجرائم الجائرة ....[3].

ويقرر السوزنى نفسه أن حياته لم تخل من النقد والتجريح، فيقول:

---

(١) ذبيح الله صفا: تاريخ أديبات در إيران، جلد دوم، ص٦٢٣. محمد محمد يونس: المرجع نفسه، ص١١٩.

(٢) محمد محمد يونس: المرجع نفسه، ص١٢١، ١٢٠.

(٣) جار جيز آورده ام يا رب كه در كنج تونيست
نيستى وحاحت وجرم وكناه آورده ام.

براون: تاريخ الأدب فى إيران، ص٤٣٤، ٤٣٣. محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى، ص٥٣، ٥٤.

لقد سرت فى طريق الشيطان ووقعت فى حبائله الشائكة بحيث تشيطنت أكثر من الشيطان، وفقته فى سيرته الخاطئة ولم أكن فى يوم من أيام حياتى مبرءا من الآثام حتى لقد خيل لى أن البراءة منها واحدة من الجرائم العظام كما تنمو الأعشاب فى الأرض الخصبة المنداة بالماء واليوم إذا أنكر المنكرون ذنوبهم ففى يوم الحشر فى الغداة ستكون أعضاء بدنى شاهدة على أعمالى فى غير مداراة[1]

وبعد توبته سافر إلى الكعبة وأدى فريضة الحج، وكان قد طلب من ممدوحه عونه فى ذلك:

سأدعو له فى مزار يشرب ببركة العمر
فليس فى الدنيا بأسرها مزار أكثر بركة منها[2].

كانت الظروف جميعا تساعد على رواج التصوف، فأصبحت الصوفية موضع احترام الناس والأمراء والسلاطين لبعدهم عن المجادلات المذهبية، مما أدى إلى انتشار التصوف وبروز طبقة المتصوفة[3]، والسوزنى إن لم يكن متصوفا ولم ينشد أشعارا فى التصوف فإن أشعاره فى الزهد التى أنشدها

(١) رفتم براه ديو وفتادم بدام أو — وز ديو ديو تر شدم از سيرت تباه
يك روز بيكناه نبودم بعمر خويش — كويا كه بود بيكنهى نزد من كناه
هر كونهء كناه زاعضاى من برست — جون از زمين نم زده هر كونه كياه
فردا بروز حشر كه امروز منكرند — اعضاى من بود بر اعمال من كواه

براون: المرجع نفسه، ص٤٣٤.

(٢) محمد محمد يونس: المرجع نفسه، ص ١٢٠، ١٢١.

(٣) أحمد كمال الدين حلمى: عمر الخيام، ص ٤٢، ٤٣. قاسم غنى: تاريخ التصوف فى الإسلام، ص٦٨٨

بدافع التوبة عن هزلياته، قد تأثرت بروح العصر وما ساده من ظروف وملابسات. وربما كانت الظروف القاسية التى ألمت بهذا العصر ودفعت الناس إلى اليأس والتشاؤم وعدم الإحساس بالأمان هى نفسها أحد العوامل التى دفعت السوزنى إلى الاتجاه صوب المدح[1].

كان السوزنى مضربا عن الزواج متمنعا بعذوبته إلا أن هذا لم يطل؛ إذ سرعان ما اتخذ لنفسه زوجة وأنجب منها عدة أبناء، تركزت الأضواء على ولد منهم يدعى ضياء الدين، هو الذى جمع أشعار أبيه ودونها بناء على قول السوزنى نفسه فى قصيدة يمدح فيها أحد ممدوحيه:

حتى تفضل ضياء الدين بعد تشجيعك لشعرى بجمع هذا الكلام الغث من الشعر.

وهذا الجمع تم ودون فى حياة السوزنى، وكان ضياء الدين هذا شاعرا أيضا وربما سار على درب أبيه مما سبب للأب آلاما من هذا السلوك، وكان للسوزنى ولد" آخر يدعى محمودا ويقول عنه مخاطبا أحد ممدوحيه:

عندى ابن سمى لأبيك، يا من خصالك محمودة مثل اسم أبيك[2]

تميز السوزنى بسهولة البيان، وأسلوب بسيط عذب بحيث لا يوجد فى كل ديوانه بيت واحد فيه تعقيد، وتتجلى فى غالب شعره روح الدين بوضوح وكذلك يعتمد على الاقتباس من الحديث و التفسير، وبلغ منتهى قدرته فى الهجاء والهزل، ولكنه كان مقتدرا أيضا فى المديح والغزليات فصيحا وبسيطا، ويعد أول شاعر استعمل ألفاظا تركية فى الشعر الفارسى ويرد فى شعره كلمات كثيرة من لهجة بلاد ما وراء النهر[3]، وخلف من بعده ديوانا زاخراً

---

(١) محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى، ص ٥٤، ٥٥.

(٢) محمد محمد يونس: المرجع نفسه، ص١٢٤.

(٣) سعيد نفيسى: تاريخ نظم ونثر در إيران، جلد أول، ص٩٨.

بالقصائد كان يحتوى على اثنى عشر ألف بيت وقيل أربعة عشر ألفا[١] وصار أسلوب السوزنى قدوة فى بلاد ما وراء النهر ووجد له مقلدون وتلاميذ من بينهم على الشطرنجى[٢]

ومن كبار الشعراء فى مدن الصغد سيد الشعراء الأستاذ أبو محمد بن محمد الرشيدى كان من أشهر شعراء القرن السادس الهجرى، لم يسبقه أحد فى صناعة الشعر، وهو من أهل سمرقند. وكانت هناك صلات بين الرشيدى والأمير عمعق البخارى فى عهد السلطان خضر ابن إبراهيم، وكان مادحا له ولزوجته[٣] وكان عمعق يمتدحه ويقر بفضله حتى ارتفع أمره وأصبح سيدا للشعراء، وأصبح مقربا للسلطان وحصل منه على صلات كثيرة وعطايا وهبات، فدبت بينه وبين عمعق جفوة لدرجة أن كلا منهما هجا الآخر[٤]. تميزت قصائده بالسلاسة وعذوبة الألفاظ والبعد عن التعقيد رغم استخدامه الكثير من التكلف والصنعة الشعرية[٥].

كما يعد أبو بكر محمد بن على روحانى السمرقندى من أشهر شعراء القرن السادس الهجرى، كان من تلاميذ رشيدى السمرقندى، وممن سار على طريقته، وقيل عنه "إن روح كلامه روح للجسد" واشتهر بمدح الملوك وأهمهم بهرام شاه ومحمد خوارزمشاه، ويذكر ذبيح الله صفا: أنه مدح غيره من ملوك الخوارزمية. وبقى شعر روحانى دليلا قاطعا على مهارته فى الشعر

---

(١) آقا بزرك: الذريعة، جـ٩، ص٤٧٦.

(٢) براون: تاريخ الأدب فى إيران، ص٤٣٤.

(٣) سعيد نفيسى: المصدر نفسه، جلد أول، ص٩٧. محمد عوفى: لباب الألباب، ص٣٧٥. محمد كامكار بارسى: رباعى ورباعى سرايان از اغاز تا قرن هشتم هجرى، تهران، ١٣٧٢، ص١١٥. ذبيح الله صفا: عمعق بخارائى، ص ٤٠٥، ٤٠٦.

(٤) هدايت: مجمع الفصحاء، جـ١، ص٥٢٤. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص٥٤٧.

(٥) محمد جعفر محجوب: سبك خراسانى در شعر فارسى، ص٤٠٤.

وعذوبة ألفاظه فى الغزل والوصف فكانت أشعاره بلا ريب لغز حير الأقلام فى الوصف والتشبيه[١].

ويعد شهاب الدين أحمد بن مؤيد النسفى السمرقندى من كبار الشعراء فى أواخر القرن السادس الهجرى وكان كما يقول هدايت: " من أماجد حكماء وأعاظم فضلاء زمانه" وكان مداحا للأمير أبى المظفر ركن الدين طمغاج خان حاكم سمرقند، ويتميز شعره بحسن الصنعة ولطف العذوبة وحسن البيان. وله ديوان شعر وقصائد جميلة، وكان من معاصرى السوزنى وهجاه[٢]. وكريمى سمرقندى، وهو شمس بهاء الدين عبد الكريم كان من شعراء أواخر القرن السادس الهجرى بسمرقند وخراسان، وكان ذا فضل وكمال وله أشعار قيمة، وحصل على ثروة ضخمة من قوله الشعر، وكانت له رحلة واسعة، وطاف البلاد وذهب إلى سجستان[٣].

وكان دهقان على شطرنجى من الشعراء العظام بسمرقند فى القرن السادس الهجرى، من أكثر تلاميذ السوزنى تقليدا، والسير على أسلوبه. وكان أيضا من كبار شعراء الخانية بسمرقند[٤]. ومن أهم أعماله قصيدة اللكلك، وهى قصيدة فى غاية اللطف والسلاسة، فكان يقول:

فى بلاد ما وراء النهر والشمس ساطعة

---

(١) ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، جلد دوم، ص٦١١.

(٢) العروضى السمرقندى: جهار مقاله، ص١٢٧. محمد عوفى: لباب الألباب، ص٥٠٢. هدايت: المصدر نفسه، جـ١، ص٣١٠. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، جلد دوم، ص ٧٦٩، ٧٧٠.

(٣) محمد عوفى: المصدر نفسه، ص٥٠٥. هدايت: المصدر نفسه، جـ١، ص٤٨١.

(٤) سعيد نفيسى: تاريخ نظم ونثر در ايران، جلد أول، ص٩٩. العروضى السمرقندى: المصدر نفسه، ص١٢٦. هدايت: المصدر نفسه، جـ١، ص٣٤٤. براون: تاريخ الأدب فى إيران، ص٤٣٤.

وطائر اللكلك سعيد وقت قدوم فصل الربيع[1].

ومن أشهر شعراء وكتاب سمرقند نظامى عروضى سمرقندى (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٤م) ويعده محمد عوفى من كبار الشعراء، وأن أكثر شعره المثنوى، وعاش نظامى عروضى فى بلاط الغوريين مدة خمس وأربعين سنة، وقام بمدحهم ولا سيما أبو الحسن حسام الدين بن فخر الدين مسعود بن أخت الملك شمس الدين محمد الملك الغورى وألف كتابه جهار مقاله - أو كما يسمى مجمع النوادر - باسم أبى الحسن حسام الدين. وكان نظامى عروضى متأثرا بأشعار رودكى. ومما يؤسف له أنه لم يصلنا من أشعاره إلا النزر اليسير، وكانت أشعاره تمتاز بالمتانة والجزالة والعذوبة[2] ومنها:

مولاى نحن فى الدنيا ثلاثة نظاميين تدوى الدنيا باسمنا

أنا فى ورساد أمام عرش ملكى والآخران فى مرو أمام السلطان

والحقيقة أن كلا منا، مفخرة خراسان اليوم

ومع أنهما يقولان شعرا رقيقا كالروح، ومع أنهما يعرفان فن القول كالحكمة

فأنا الشراب إذا تمكنت منهما نزلا عن صناعتهما[3]

---

(١) ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص٦٣٧.

(٢) محمد عوفى: لباب الألباب، ص٣٩٥. أحمد بيرشك: كارنامه بزركان إيران، انتشارات راديو، ١٣٤٠، ص١٤٥. براون: تاريخ الأدب فى إيران، ص٤٢٥. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، جلد دوم، ص ٩٦١، ٩٦٢. رياحى بور: اطلاعات عمومى، انتشارات زرين، خيابان شاه، ١٣٥٢، ص١٨٢.

(٣) من بورساد بيش تخت شهم وآن دو در مرو بيش سلطانند

بحقيقت كه در سخن امروز هر يكى مفخر خراسانند

كرجه همجون روان سخن كويند ورجه همجو خرد سخن دانند

من شرابم كه شان جو دريابم هر دو از كار خود فرو مانند

العروضى السمرقندى: جهار مقاله، ص ٦٠، ٦١.

كما كان الأنورى أوحد الدين محمد بن عبد الملك (ت٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) من أعظم شعراء الفرس، بل هو أحد ثلاثة أطلق عليهم فى الأدب الفارسى أنبياء الشعر، عاش فى عصر السلطان سنجر، وبلغ بقصيدة المدح الفارسية أقصى قدرته[١]، ونظم الأنورى قصيدة بناء على طلب أهالى خراسان ووجهها إلى أمير سمرقند محمود بن أرسلان خان الذى كان يتولى حكم سمرقند وقت معركة الغز مع السلطان سنجر سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م يقول فيها:

إذا مررت يا ريح السحر على مدينة سمرقند
فاحملى رسالة الخراسانيين إلى حضرة الخاقانى
فهى رسالة مطلعها عناء للجسد وآفة للروح
ومقطعها ألم للقلب وحتى للكبد
رسالة تبدو فى سطورها تأوهات الغرباء
وتحوى فى ثناياها دعاء الشهداء[٢].

وكان حميد الدين محمود الجوهرى السمرقندى، من أفاضل الشعراء فى أواخر القرن السادس الهجرى، معاصرا للسوزنى، ملمًا بفنون عصره، له باع طويل فى الشعر وفنونه[٣]. وأبو سعيد أحمد بن محمد المنشورى السمرقندى كان من شعراء الخانية فى القرن السادس الهجرى، ويقول عنه

---

(١) محمد غنيمى هلال: مختارات من الشعر الفارسى، القاهرة، ١٩٦٥، ص١٥٩، ١٦٠.

Claud Field , Persian Literature,London,1912, p97,98.

(٢) محمد محمود إدريس: السلطان سنجر، ص٩٠.

(٣) سعيد نفيسى: تاريخ نظم ونثر در إيران، جلد أول، ص٩٩. محمد عوفى: لباب الألباب، ص٣٩٧.

رشيد الدين الوطواط: إنه كان بارعا فى نظم الشعر[1]. كما يعد رضى الدين النيسابورى من كبار الشعراء فى أواخر القرن السادس الهجرى وبداية القرن السابع، وهو من المعاصرين للسوزنى، تميز بفصاحة اللسان وعذوبة الألفاظ، ،غلب على أشعاره المدح، وكان يحظى باحترام الجميع من الحكام ورجال الدين والعامة، سكن سمرقند ومدح ملوك الخانية وبالأخص السلطان قلج طمغاج خان إبراهيم وابنه ارسلان خان عثمان[2].

وكان سيد معين الدين أشرف السمرقندى (ت٥٩٥هـ/ ١١٩٨م) من أشهر الشعراء فى سمرقند، ماهرا فى فنون الشعر المختلفة، قام بمدح الملك بيغو وصحبه إلى العراق ثم رحل إلى أصفهان وكان مرتبطا بالشعراء المعاصرين له، ثم سلك طريقه إلى السلطان طغرلبك السلجوقى آخر سلاطين السلاجقة فى العراق، وما لبث أن عاد إلى سمرقند ومات بها[3].

كما أمدنا العصر السلجوقى فى مدن إقليم الصغد بعدد كبير من الشعراء الرسميين والشعبيين، طالعنا هذا العصر أيضا على شعراء علماء وفقهاء قدموا لنا نماذج من أشعارهم فى غاية من الرقة والسلاسة مما يؤكد إجادتهم فيه، وكان هؤلاء يمثلون الطبقة المثقفة. ومن أشهرهم القاضى الإمام أبو زيد عبيد الله بن عمر بن عيسى الدبوسى (ت٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م) صاحب الأسرار والتقويم والأمد الأقصى وغير ذلك، وله شعر رائع منه:

جهدت لتأصيل الدلائل للورى فوفقنى ربى وما طاش من سهم

---

(١) العروضى السمرقندى: جهار مقاله، ص١٢١.

(٢) اسفزارى: روضات الجنات فى أوصاف مدينة هرات، تعليق وحواشى سيد محمد كاظم امام، تهران، ١٣٣٨، ص٧٠. سعيد نفيسى: المصدر نفسه، جلد أول، ص٩٩. عبد العظيم رضايى: تاريخ ده هزار ساله إيران، جلد سوم، ص١٤٢.

(٣) سعيد نفيسى: المصدر نفسه، جلد أول، ص٨٧.

وأحييت ما قد مات من سنن الهدى لمستنبطى الأحكام بالرأى والفهم[1]

كذلك كان أبو القاسم أسعد بن على بن أحمد البارع الزوزنى (ت٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م) فريد عصره وأوحد دهره له القصائد الحسنة والمعانى الدقيقة وقد شاع ذكره، وأنشد بسمرقند:

أبو بكر حبانى الله مالا أكان بشأنه يجزى بلالاً

لقد واسى النبى بكل شىء وأعتق من ذخائره بلالاً

لو أن البحر أبغضه اعتقادا لما أبقى الإلاه به بلالاً

ولما فتح السلطان ملكشاه قلعة سمرقند، وأمر بنقضها، أنشد:

عنى المعاول والحيطان راقصة وللنجوم استماع؛ والقنا ثمل[2]

وكان أبو المعالى قيس بن إسحاق بن محمد بن أميرك المرغينانى (ت٥٢٧هـ/ ١١٣٢م) مقيما بسمرقند وله شعر رقيق:

قل للأمير أدام ربى عزه أناله من فضله مخزونة

أنى جنيت ولم يزل نبل الورى يهبون للخدم ما يحبونه

من كان يرجو عفو من هو فوقه عن ذنبه فليعف عن من دونه[3]

كما كان أبو هارون موسى بن إبراهيم بن عبد الله القحطانى المغربى الاغماتى (ت بعد٥٢٩هـ/ ١١٣٥) إماما فاضلا مناظرا، رحل إلى بلاد ما وراء النهر وسكن سمرقند وذكره أبو حفص فقال: قدم علينا سنة (٥١٦هـ/ ١١٢٢م) وهو شاب فاضل فقيه مناظر شاعر بليغ، بقى فى بلاد العراق وخراسان وبخارى وسمرقند ثلاث عشرة سنة، ينشر الحديث والفقه، وبقى

---

(١) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص٤٦٧

(٢) عماد الدين الأصفهانى: خريدة القصر، جـ٢، ص ٨٧، ٨٨.

(٣) القرشى: الجواهر المضية، جـ٢، ص٧١٢.

عندى أياما وكتب عنى الكثير، ولأجله جمعت كتابا لقبته: عجالة النخشبى لضيفه المغربى، وذكر أنه قيل فيه:

لقد طلع الشمس من غربها　　على خافقيها وأوساطها

فقلت القيامة قد أقبلت　　فقد جاء أول أشرطها

وفيه قلت أيضا:

سر قرب الشيخ موسى　　كل قلب كان يوسى

ومحا الهم كما يمحو　　شعور الرأس موسى

أنشدنى موسى الأغماتى لنفسه:

لعمر الهوى أنى وإن شطب النوى　　لذو كبد حرى وذو مدمع سكب

فإن كنت فى أقصى خراسان نازحا　　فجسمى فى شرق وقلبى فى غرب[1]

كما كان أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل النسفى السمرقندى (ت٥٣٧هـ/ ١١٤٢م) من كبار علماء سمرقند عارفا بالمذهب والأدب، له شعر حسن مطبوع على طريقة الفقهاء والحكماء[2] ومنه:

الله بالوالدين وصانا　　وعن أذى الوالدين نهانا

من بعد إلزامنا عبادته　　قال وبالوالدين إحسانا[3]

له أيضا: كلم الرسول جوامع الكلم　　ولوامع الأحكام والحكم

---

(١) الأسنوى: طبقات الشافعية، جـ١، ص٥٩. السمعانى: الأنساب، جـ١، ص١٩٤، ١٩٥. النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص٧٠٥. ياقوت الحموى: معجم الأدباء، مج٤، ص٤٧١.

(٢) السمعانى: التحبير فى المعجم الكبير، جـ١، ص ٥٢٧، ٥٢٩.

(٣) النسفى: المصدر نفسه، ص٢٢٩

فتطلبوا الأخبار واغتنموا أن الحديث أجل مغتنم[1]

له أيضا: كم ساكت أبلغ من ناطق وراجل أشجع من فارس

ولاحق يسبق عربا مضوا بفضل دين وهو من فارس[2]

ومنهم أبو زيد محمد بن محمد بن إسماعيل الاسفرنجى (ت٥٥٠هـ/ ١١٥٥م) كان فقيها من بيت العلم، ورد سمرقند وزار السمعانى وكان فاضلا حسن المحاورة، مليح الشعر، دخل على السمعانى واعتذر عن تأخره ببيتين أنشدهما لنفسه:

من حق عبدك أن يمشى إليك كما يمشى العبيد إلى أبواب سادات

لكننى خائف أن لا أعوقك عن ورد العبادات أو ورد الإفادات[3]

وأبو الليث أحمد بن شيخ الإسلام أبى حفص عمر النسفى السمرقندى (ت٥٥٢هـ / ١١٥٧م) فقيها حسن الهيئة غزير العلم واسع الحفظ، صنف التصانيف المفيدة النافعة، أنشد وهو خارج من بغداد:

يا عالم الغيب والشهادة إن بتوحيدك الشهادة

أسأل فى غربتى وكربى منك وفاة على الشهادة

ورزقه الله الشهادة وهو فى الطريق إلى سمرقند وذلك عندما وصل قومس، فخرج جماعة من أهل القلاع وقطعوا الطريق على القافلة وقتلوا مقتلة عظيمة من العلماء[4].

---

(١) عماد الدين الأصفهانى: خريدة القصر، جـ٢، ص١٢١.

(٢) ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، جـ٦، ص ١٠٤.

(٣) السمعانى: الأنساب، جـ١، ص١٤٥.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٢٦. ابن الجوزى: المنتظم، جـ١٠، ص١٧٧.

أنشد للسمعانى لفظا قال أنشدنى والدى لنفسه:

يا صاحب العلم أترضى بأن يسعد قوم ولك الشقوة

كفاك الله سبحانه لا يكن غيرك أوفى منك بالحظوة[1]

كان أبو بكر بن أحمد بن على بن عبد العزيز البلخى الأصل السمرقندى (ت٥٥٣هـ/ ١١٥٨م) من أشهر الفقهاء، وله شعر جيد:

يا زائدا فى أكله لقمة أسقمت جسما سالما بالتخم

فيالها من لقمة أسقمت جسما وردت عدة من لقم[2]

كما تميز أبو بكر عبد الله بن على بن صائن بن عبد الجليل الفرغانى (ت٦١٦هـ/ ١٢١٩م) نزيل سمرقند، بالقدرة على الإنشاء نظما ونثرا وفصاحة اللسان وعذوبة الألفاظ، وكان متولى الخطابة، وأنشد لنفسه:

تحر فديتك صدق الحديث ولا تحسب الكذب أمرا يسيرا

ومن كان بالكذب مستهترا سيدعو ثبورا أو يصلى سعيرا[3]

وكان أبو منصور محمد بن سليمان بن قتلمش السمرقندى (ت٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) بارعا فى الأدب وبالأخص الشعر. ومن شعره:

سئمت تكاليف الحياة وكر الصباح بها والمساء

وقد صرت كالطفل فى عقله قليل الصواب كثير الهذاء

أنام إذا كنت فى مجلس واسهر عند دخول الغناء

---

(١) تقى الدين التميمى: الطبقات السنية فى تراجم الحنفية، جـ ١، ص٤١٧. القرشى: الجواهر المضيه، جـ ١، ص٢٢٧.

(٢) القرشى: المصدر نفسه، جـ٤، ص ١٠٤، ١٠٥.

(٣) ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، جـ٦، ص١٢٥.

وقصر خطوى قيد المشيب وطال على ما عنانى عناء

وما جر ذلك غير البقا فكيف ترى سوء فعل البقاء

وقال أيضا:

يا قوم ما بى مرض واحد لكن بى عدة أمراض

ولست أدرى بعد ذا كله أساحط مولاى أم راضى[1]

تميز الشعر الفارسى فى مدن إقليم الصغد خلال العصر السلجوقى بعدة خصائص منها:

١ - انعكاس مضامين الشعر العربى وأفكاره فيه

٢ - خروج الشعر من محيط البلاط المحدود، واتساع موضوعاته، وبسطة بيانه،

٣ - عرض عقائد الزهد والتصوف بأبلغ أسلوب، والدعوة إلى العزلة والاعتكاف

٤ - الاهتمام الكبير بإيراد المعانى والمضامين الدقيقة فى المديح مما تسبب عنه الإبهام والغموض

٥ - إيراد أبسط الأساليب وأقربها إلى الطبيعة فى الغزل[2].

كانت شهرة الشاعر تعتمد على درايته الكبيرة فى أكثر من فرع من فروع العلوم. حيث ساد الاعتقاد بأنه كما يفيد الشعر فى كل علم فإن كل علم

---

(١) ابن شامة: تراجم القرنين السادس والسابع، المعروف بالذيل على الروضتين، القاهرة، ١٩٤٧، ص١٣٥. الصفدى: الوافى بالوفيات، جـ٣، ص١٢٥. الكتبى: فوات الوفيات، جـ٣، ص٣٧٠، ٣٦٩. عمر فروخ: تاريخ الأدب العربى، جـ٣، ص٤٧٥، ٤٧٦.

(٢) أحمد كمال الدين حلمى: عمر الخيام، ص٨د.

يفيد فى الشعـر، وتعددت موضوعات الشعر، ونظـم الشعراء فى كل ما نظم فيه سابقوهم من المشاهير[1].

صفـوة القول ارتقى فن الأدب فـى إقليم مدن الصـغد وبلغ أوج رقـيه خلال القرنين الخـامس والسادس الهجريين وتبارى الحكام فى جـمع الشعراء والكتاب حتى يظفـروا بمدحهم والإشادة بفضائلهم ومن ثم كثـر عدد الشعراء والكتاب المجيدين.

علم التاريخ والجغرافيا والكلام والفلسفة

علم التاريخ

التاريخ لغـة يعنى التعريف بالوقت، واصطلاحا علم يبـحث فى وقائع الماضى وأوقاتها[2]. وكلمة التاريخ لم يرد ذكـرها فى القرآن الكريم والحديث وأشعـار العرب قبل الإسـلام، وعرفهـا المسلمون عن الفرس من كلمـة "ما روز" أى حسـاب السنين والشهور القمـرية، ومنها اشتق العـرب كلمة تاريخ ومؤرخ[3]، وقال تعالى: "هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ"[4].

يعرفه ابن خلدون بأنه: " فن عزيز المـذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ يوقفنـا على أحوال الماضين من الأمم فـى أخلاقهم، والأنبـياء فى سـيرهم، والملوك فى دولهم وسياسـتهم حتى تتم فائدة الاقـتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا فـهو محتاج إلى مآخـذ متعددة ومعارف مـتنوعة وحسن

---

(١) أحمد كمال الدين حلمى: المرجع نفسه، ص٦٠،٥٩.

(٢) رحيـم كاظم مـحمـد الهاشـمى وعواطف مـحمـد العربى شنقـارو: الحضـارة العربـية الإسلامية، ص١٧٧.

(٣) عصام الدين عبد الرءوف الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى، ص٢٥٤.

(٤) يونس: آية٥.

نظر وتثبت يفيضان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط"[1].

لا شك أن انتشار الإسلام أسهم فى تنمية الوعى التاريخى عند العرب والمسلمين فقد وردت فى القرآن الكريم أخبار" عديدة وإشارات إلى الأمم السابقة والأنبياء والرسل الذين سبقوا النبى محمد عليه الصلاة والسلام، وبذلك وجه القرآن الكريم أنظار المسلمين للاهتمام بالتاريخ لما فيه من قصص وأخبار عن الأمم السابقة. كما كان الاهتمام بتتبع حياة الرسول وغزواته وتعاليمه وسيرته، وتسجيل كل ما يمس حياته وصفاته بصدق وأمانة دوراً لا ينكر فى تنمية الحس التاريخى عند العرب[2].

ظهرت طائفة من المؤرخين الذين كتبوا فى موضوعات شتى وألفوا كتبا كثيرة شملت الحياة السياسية والعقلية والعقائد والأخلاق والأدب وسائر العلوم، ويتضح ذلك من خلال تنوع الدراسات التاريخية فى هذا العصر التى احتوتها كتب التراجم، وتعتبر من أهم أنواع الكتابة التاريخية فى هذه المرحلة، عنى بها المؤرخون المسلمون فى مدن الصغد خلال هذا العصر عناية فائقة، فما أن يظهر أحد من المتخصصين فى أى فرع من فروع العلم والمعرفة إلا وتناولته كتب التراجم بالكتابة عن تفصيلات حياته ودراسته وتخصصه وإسهاماته العلمية وشيوخه وتلامذته. وتميزت هذه المعاجم التاريخية بجمع التفاصيل المنثورة فى تضاعيف الكتب، وتنسيقها وترتيبها[3].

يعد أبو العباس جعفر بن محمد بن المعتز بن محمد المستغفرى السمرقندى (ت٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م) من أبرز العلماء فى هذا العصر إذ كان اهتمامه منصبا على الحديث، رحل فى طلب العلم إلى خراسان وأقام

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص١٠.

(٢) رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف محمد العربى شنقارو: المرجع نفسه، ص١٧٨.

(٣) مريزن سعيد مريزن عسيرى: الحياة العلمية فى العراق، ص ٤٣٠، ٤٣١.

بسرخس ومرو مدة، سمع الحديث من جماعة كثيرة، صنف التصانيف العديدة منها: معرفة الصحابة، وكتاب الخطب النبوية، وكتاب دلائل النبوة[1]، وكتاب تاريخ سمرقند، وكتاب تاريخ نسف الذى يقع فى مجلدين كبيرين[2]. والحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن محمد الأصبهانى المعروف بالدقاق (ت٥١٦هـ/ ١١٢٢م) نزيل سمرقند، رحل فى طلب الحديث، سمع من كثير من الشيوخ فى طوس وهراة وبخارى وسمرقند، وله رحلة ذكر فيها ألف شيخ أخذ عنهم فى معجم مشايخه[3].

وكان أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عمر بن الأشعث السمرقندى (ت٥١٦هـ/ ١١٢٢م) من كبار حفاظ الحديث، كان يقرأ للوزير نظام الملك على الشيوخ ويفيده عنهم، عمل لنفسه المعجم فى ثمانية أجزاء[4]. كذلك كان أبو القاسم إسماعيل بن أحمد بن عمر الأشعث السمرقندى (ت٥٣٦هـ/ ١١٤٢م) من أبرز المؤرخين، عارفا بالرجال، من آثاره كتاب من فضائل العباس بن عبد المطلب[5] وكتاب معجم الشيوخ[6].

كما كان أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن لقمان

---

(١) السمعانى: التحبير فى المعجم الكبير، جـ٢، ص١٤٧.

(٢) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص١٧.

(٣) الذهبى: تذكرة الحفاظ، جـ٤، ص ١٢٥٥، ١٢٥٦. عماد الدين الأصفهانى: خريدة القصر، جـ٣، ص١١٠. عمر رضا كحالة: معجم مصنفى الكتب العربية فى التاريخ والجغرافية والرحلات، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦، ص٥٢٧.

(٤) ابن الجوزى: المنتظم، جـ٩، ص٢٣٨. الذهبى: المصدر نفسه، جـ٤، ص١٢٦٣، ١٢٦٤. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص١٩١.

(٥) ابن الصلاح الشهرزورى: طبقات فقهاء الشافعية، جـ١، ص٤٢٦. عمر رضا كحاله: المرجع نفسه، ص٩٥.

(٦) العسقلانى: لسان الميزان، جـ٦، ص٢٧٦، ٢٧٧.

النسفى السمرقندى (ت٥٣٧هـ/ ١١٤٣م) من كبار المؤرخين، من أهل نسف، سكن سمرقند، وهو إمام فقيه عارف بالمذهب والأدب صنف التصانيف فى الفقه والحديث وكان مرزوقا فى الجمع والتصنيف، وكان شيوخه كثيرين، جمعهم فى كتاب سماه تعداد الشيوخ لعمر مستطرف على الحروف، جمع فيه شيوخه وهم خمسمائة وخمسون شيخا[١]، وكتاب الإجازات المترجمة بالحروف المعجمة، وهذا الكتاب مخصص لمن أخذ عنهم إجازة فى الرواية، وقد وردت أسماء بعض شيوخه وأهمهم ممن كانوا حلقة وصل بينه وبين أصحاب المؤلفات التى ربما أفاد منها فى تأليفه كتاب القند فى ذكر علماء سمرقند، وممن أفرط فى النقل عنهم إلى درجة أنه كان يختصر بداية الإسناد لكثرة تكراره. وأهمهم الحسن بن عبد الملك بن على بن موسى ابن اسرافيل النسفى (ت٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) الذى كان يلازم المستغفرى وسمع منه الكثير ويرد فى القند بهذا الشكل. والمستغفرى (ت٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م) مؤلف تاريخ نسف[٢].

وأبو حفص عمر بن أحمد بن محمد بن شبيب الديزكى السمرقندى (ت٥١١هـ/ ١١١٧م) الذى روى عن أبى حفص عمر بن أحمد بن محمد بن الحسن الفارسى الشاهينى (ت٤٥٤هـ / ١٠٦٢م) والذى روى بدوره عن عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن عبد الله الاسترابادى الإدريسى (ت٤٠٥هـ/ ١٠١٤م)[٣] مؤلف كتابين مهمين، ويرجح أن عمر النسفى أفاد منهما وهما: تاريخ إستراباد، والكمال فى معرفة الرجال بسمرقند. وورد فى

---

(١) الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ٣٦، ص ٤٤٧، ٤٤٨. العسقلانى: لسان الميزان، جـ٤، ص٣٢٧. ابن قطلوبغا: تاج التراجم، ص١٦٣.

(٢) Paul ,The Histories of Samarqand ,p70-71

(٣) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص١٥-١٧.

Paul , OP.cit.p70-72

القند أن اسمه الكمال فى معرفة الرجال من علماء سمرقند. وكان الإدريسى من أهل إستراباد، سكن سمرقند، إلى حين وفاته وكان حافظا جليل القدر كثير الحديث، رحل فى طلب العلم وكتب الحديث على إتقان ومعرفة تامة[١].

اختصر كتاب القند تلميذ أبى حفص عمر النسفى، أبو الفضل محمد ابن عبد الجليل بن عبد الملك بن على بن حيدر السمرقندى المؤرخ، وسماه "منتخب القند فى تاريخ سمرقند"[٢] وكان معظم الكتاب تشغله الأحاديث النبوية وسير الأولياء والكلام على أضرحتهم، مع إشارات وافية عن أوقات زيارتها وما يرتبط بذلك من شعائر[٣].

ويعد بهاء الدين محمد بن على بن محمد بن الحسن الظهيرى الكاتب السمرقندى (ت٥٥٦هـ/ ١١٦٠م) أحد مشاهير الكتاب فى عصر السلاجقة، كان يتولى رئاسة ديوان الرسائل لطمغاج، وتستند شهرة المؤلف أساسا إلى مصنفه الأدبى وهو سندباد نامه، وله أيضا: مصنف تاريخى وهو كتاب أغراض السياسة فى أعراض الرياسة، ويشتمل الكتاب على لطائف كلام الملوك وتراجم لسيرهم من عهد جمشيد إلى عهد قلج طمغاج خان إبراهيم الذى أهدى إليه الكتاب، ويغلب على روايته الطابع القصصى[٤].

---

(١) الذهبى: تذكرة الحفاظ، جـ٣، ص١٠٦٢. السمعانى: الأنساب، جـ١، ص٩٧. السيوطى: طبقات الحفاظ، ص٤١٥. الصفدى: الوافى بالوفيات، جـ١٨، ص٢٥٥.

Paul , OP.cit,p70-71

(٢) حاجى خليفة: كشف الظنون، جـ٢، ص١٣٥٦. السيوطى: بغية الوعاة، جـ٢، ص٤٠. عمر رضا كحاله: معجم مصنفى الكتب العربية فى التاريخ والتراجم والجغرافية والرحلات، ص٥٠٦

(٣) بارتولد: تركستان، ص٧٩.

(٤) أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة فى التاريخ والحضارة، ص٢٨٢. أمين عبد المجيد بدوى: القصة فى الأدب الفارسى، ص٣٢٩. بارتولد: تركستان، ص٨٢.

والإمام الحافظ تاج الإسلام أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعانى التميمى المروزى (ت٥٦٢هـ/ ١١٦٦م) كان من أشهر أئمة المسلمين فى علوم كثيرة، وكان أقرب هذه العلوم إليه علم الحديث لذلك احتل فى الحديث مكانة كبيرة، حيث كان واسطة عقد بيت السمعانى وعينهم الباصرة ويدهم الناصرة، إليه انتهت رئاستهم وبه كملت سيادتهم، نشأ فى بيت كل أفراده علماء وحفاظ وفضلاء، مما أتاح للسمعانى أن يسلك طريقهم ويتلقى عنهم ويستفيد منهم، وهذا الذى شجعه فكان عالما متبحرا[١] قطع المسافات والآفاق والتقى بالعلماء، وكان وافر الهمة فى طلب العلم، شديد الحرص على لقاء المشايخ. وتلقى أبو سعد علوم الحديث، وشتات المعرفة على عدد كبير من المشايخ[٢] واتسعت رحلته فعمت بلاد خراسان والعراق والحجاز والشام وطبرستان وبلاد ما وراء النهر ودخل سمرقند وأخذ الكثير عن مشايخها[٣]، وكان من بين مشايخه للحدثون، والحفاظ، والفقهاء، والمناظرون، وقيل كان عدد شيوخه يزيد على أربعة آلاف شيخ، روى عن كل منهم إما قليلا أو كثيرا، وكانت كثرة مشايخه تدل على ما بذله من جهد كبير وصبر على المصاعب والسعى الطويل الشاق[٤].

فسر أبو سعد حبه للحديث، وكثرة مسموعاته فى كلامه على معاجم شيوخه بقوله: "لأن الله تعالى جده، وتوالى جوده، قد كان حفيا بى،

---

(١) السمعانى: الأنساب، جـ١، ص١٠. زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ص٦٨. عبد الصاحب عمران الدجيلى: أعلام العرب فى العلوم والفنون، جـ١، ص ٢٨١، ٢٨٢.

(٢) البخارى: التاج المكلل، ص٧٦.

(٣) السمعانى: المصدر نفسه، جـ١، ص١١. السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، جـ٧، ص١٨٠، ١٨١.

(٤) أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص٢٦٥. زكى محمد حسن: المرجع نفسه، ص٦٨.

ووليا لى: حيث حبب إلى الحديث، وزينه فى قلبى، ورزقنى سماع كل سنة حسنة، ووفقنى لشد الرحال إلى محال الترحال حتى رأيت الأفاضل والمقانع قبل أن تصير الديار منهم بلاقع واجتمع عندى من مكتوم الفوائد ومختوم الزوائد وفقر المسموعات وبقر المجموعات ما لا أعلمه اجتمع لواحد من أبناء المشيخة إلا شاء الله من أهل الدهر»[1].

ملأ أبو سعد صفحات كثيرة من مؤلفات ضخمة بتراجم شيوخه، منها: كتاب العوالى، فى اثنين وثلاثين جزءا خرجه لولده أبى المظفر عبد الرحيم[2] وكتاب المعجم، فى ثمانية عشر جزءا خرجه لولده أبى المظفر عبد الرحيم أيضا[3]، كما جمع لنفسه معجما آخر لشيوخه، يضاف إلى ذلك أنه ذكر عددا كبيرا من مشايخه الآخرين فى مؤلفات غيرها مثل الذيل على تاريخ بغداد، وتاريخ مرو، وكتاب الهداية، وكتاب التحبير فى المعجم الكبير، وكتاب مقام العلماء بين يدى الأمراء[4] وكتاب الأنساب الذى لخصه ابن الأثير فى كتابه اللباب فى تهذيب الأنساب[5] كما اختصره السيوطى بعنوان لب الألباب فى تحرير الأنساب[6].

شرع السمعانى بجمع كتاب الأنساب فى سمرقند سنة (٥٥٠هـ/ ١١٥٥م)[7] بناء على رغبة عمر بن على البسطامى الذى قابله فيها. وجمع

---

(١) السمعانى: التحبير فى المعجم الكبير، جـ١، ص٢٢، ٢١.

(٢) السمعانى: المصدر نفسه، جـ١، ص٢١.

(٣) البخارى: التاج المكلل، ص٧٦.

(٤) السمعانى: الأنساب، جـ١، ص١٢، ١١.

(٥) سراج الدين أبو حفص المصرى: طبقات الأولياء، تحقيق نور الدين شريبة، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٦، ص٤٠.

(٦) أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص٢٦٨.

(٧) منيرة ناجى سالم: تاج الإسلام أبو سعد السمعانى وكتابه التحبير فى المعجم الكبير، ص٢٦٥.

فيه بضعة آلاف من التراجم مرتبة على حروف المعجم، ونسب كل واحد منها إلى بلد أو قبيلة أو صناعة أو تجارة أو غير ذلك، فكان يضبط حروف النسبة ويشرحها، ولا مراء أن أبا سعد بذل قصارى جهده فى معجمه لاستقصاء الأنساب التى اشتهرت بها جماعة العلماء والشيوخ وغيرهم من الشخصيات التى خلفت أثرها فى الإسلام[1]. أما عن الأسلوب الذى اتبعه فى كتابه الأنساب فإنه يثبت تطور الفكر التاريخى عند مؤرخى المسلمين فى العصور الوسطى، وذلك بإعطائه فكرة واضحة عن الأشخاص ويشرح معانى الأنساب ويشتمل كلامه على الأسماء التى فى مدن الصغد وبلاد ما وراء النهر خاصة على مادة هامة[2].

كذلك كان أبو أحمد معمر بن عبد الواحد بن رجاء بن عبد الواحد بن محمد بن الفاخر القرشى السمرقندى الاصبهانى (ت٥٦٤هـ/١١٦٩م) من كبار الحفاظ زار بغداد سبع مرات وسمع منه ابن الجوزى، وصنف كثيرا فى الحديث والتواريخ والمعاجم[3].

علم الجغرافيا

الجغرافيا كلمة يونانية مركبة من "جيه" أى الأرض، و"غرافيا" أى ارسم، فعربها المسلمون بمعنى علم تقويم البلدان، وهى علم يبحث فى أحوال الأرض من حيث تقسيمها إلى الأقاليم والجبال والأنهار والمعتدل من الأقاليم والمنحرف، واختلاف أحوال العمران فى الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك فى أبدان البشر وأخلاقهم[4].

---

(١) أحمد رمضان أحمد: المرجع نفسه، ص ٢٦٦، ٢٦٨. بارتولد: تركستان، ص١٠٤. زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ص٦٨.

(٢) أحمد رمضان أحمد: المرجع نفسه، ص ٢٦٦، ٢٦٨.

(٣) الزركلى: الأعلام، جـ٧، ص٢٧٢.

(٤) أحمد عطية الله: القاموس الإسلامى، جـ١، ص٦١٥. محمد عادل عبد العزيز: الحضارة الإسلامية وعوامل الازدهار وتداعيات الإنهيار، ص٢٣١.

تطورت الدراسات الجغرافية الإسلامية بمرور الوقت وساعد على تطورها عدة عوامل أساسية وثانوية أبرزها:

١ - الاتصال بالفكر الأجنبى: انحصرت اهتمامات العرب الأولى بالثقافة اللغوية والدينية والتاريخية، وبعد اتصال الفكر العربى بالفكر اليونانى والهندى والإيرانى عن طريق الترجمة انكشفت للعرب ألوان جديدة من المعرفة كان من ضمنها المعرفة الجغرافية(١).

٢ - اتساع الدولة الإسلامية فشملت أقطارا شاسعة وكان لابد من تجميع المعلومات عن الأقطار الجديدة ليتيسر إدارتها وحكمها ومعرفة خراجها(٢).

٣ - ازدهار النشاط التجارى الذى لعب دورا أساسيا ومزدوجا فى إثراء المعرفة الجغرافية. وكانت الأسواق الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها مرتبطة بعضها ببعض، وكان التجار يحملون متاجرهم وسلعهم إلى حيث الربح الوفير(٣). وكانت سمرقند فرضة التجار ومجمع التجارات بلا منافس(٤). لا شك أن النشاط التجارى تطلب اكتساب المعلومات عن الطرق والمسالك المؤدية إلى الدول المختلفة، وهو أمر لا غنى عنه للتجار، فضلا عن معرفة المدن التجارية الرئيسية وما تشتهر به كل منها من سلع. ومن جهة أخرى تولى التجار ومستخدموهم مهمة جمع المعلومات البشرية والاقتصادية

---

(١) شاكر خصباك: الجغرافية عند العرب، دار المعارف، تونس، (د.ت)، ص٧.

(٢) أبو زيد شلبى: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٣٦٦، ٣٦٧. نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب، ص١١. على فهمى شتا: العالم الإسلامى، مجلة الدارة، العددان ٣، ٤، ١٩٧٦م، ص٢٢٣.

(٣) محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ص٦. نقولا زيادة: المرجع نفسه، ص١٥، ١٣٧. على فهمى شتا: المقال نفسه، ص٢٢٣.

(٤) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص١٧٨. نقولا زيادة: المرجع نفسه، ص٥٢.

عن البلدان[1]. ومن أشهر التجار الذين طافوا بالعالم وعرفوا مواقع البلاد عبد الرشيد بن المظفر بن عبد الحميد الخجندى التاجر (ت٥١٥هـ/ ١١٢١م) كان من كبار التجار الجوالين سافر إلى بلاد الترك ودخل الصين وبلاد الهند وبلاد ما وراء النهر ودخل سمرقند وتفقه على البزدوى وآخرين، وكان حنفى المذهب محبا للحديث وأهله[2].

كما كان داود بن أحمد بن سعيد بن خلف بن داوود بن عثمان بن عزيزى الطيبى الواسطى التاجر (ت٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) من أعيان التجار والنبلاء الكبار الجوالين فى الآفاق وكان شيخا حسن المحاضرة دخل سمرقند وبخارى وجال فى البلدان الإسلامية طلبا للعلم والتجارة[3].

٤ - ساهم الحج بنصيب كبير فى تشجيع المعرفة الجغرافية حيث كان من أهم العوامل التى دفعت بالمسلمين من كل فج عميق وعلى كل ضامر إلى الرحلة والانتقال، فكان الحج ولازال يستثير همم المسلمين من شتى أقطار الدولة الإسلامية لشد الرحلة إلى مكة المكرمة،ولا شك أن حركة التنقل هذه حفزت الكثيرين من أهل العلم إلى تدوين مشاهداتهم[4].

٥ - الرحلة فى طلب العلم كانت من أهم مميزات الحركة العلمية فى مدن إقليم الصغد[5] فكان العلماء يتخذون الرحلة وسيلتهم لاستتمام العلم،

---

(١) شاكر خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٨.

(٢) السلفى: معجم السفر، جـ١، ص١٨٦.

(٣) ابن العديم: بغية الطلب فى تاريخ حلب، جـ٧،ص ٣٤٣١، ٣٤٣٢.

(٤) جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، جـ٣،ص٧٢٢. حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، ص٨٩. زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ص٦. نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب، ص١٣٨. محمد الخضر حسين: أثر الرحلة فى الحياة العلمية والأدبية، جـ٣، محاضرات المجمع العلمى العربى، دمشق،١٩٥٤، ص٣١٨.

(٥) Jorgen Baksimonsen,The Mosque Sultan Shah and Great Mughal, p54

وإكمال المعرفة، وتبادل الخبرات والمعلومات، واختبار الأفكار والنظريات[1] وكان طلاب الحديث أنشط الناس للرحيل وأصبرهم على العناء[2] ومن كبار الرحالة الحافظ محمد بن على بن حمدان (ت٤٤١هـ/ ١٠٤٩م) رحل فى طلب الحديث إلى سمرقند وبخارى ونيسابور[3] والحافظ الجوال أبو الوليد الحسن بن محمد بن على البلخى (ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) طوف البلاد وحصل الأسانيد والغرائب وتوفى بسمرقند[4]. وأبو محمد بن محمد بن أيوب أبو محمد القطوانى السمرقندى (ت٥٠٦هـ/ ١١١٢م) سافر البلاد ولقى الشيوخ[5]. وأبو سعيد هلال بن عبد الرحمن بن شريح بن عمر بن أحمد ابن محمد بن إبراهيم بن سليمان بن بلال بن رباح مؤذن الرسول (ت٥١٩هـ/ ١١٢٥م) له رحلة واسعة شملت معظم البلاد الإسلامية وتوفى بسمرقند[6]

٦ - كان بعض الحكام المسلمين يوفدون الرسل والسفراء إلى غيرهم من الحكام والأمراء فدعا ذلك أحيانا إلى القيام برحلات إلى أصقاع لا يألفها المسلمون[7] من ذلك رحلة الأمير الحافظ أبى نصر على بن الوزير أبى القاسم

---

(١) الجوينى: البرهان فى أصول الفقه، جـ١، ص٣٥. الجوينى: الدرة المضية فيما وقع فيه الخلاف بين الشافعية والحنفية، ص٣٥. أحمد فؤاد الأهوانى: التربية فى الإسلام، ص٦٣.

(٢) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، جـ١، ص١٤. حسن جبر: أسس الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٨١

(٣) الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ١٧، ص٦٦٣.

(٤) الذهبى: تذكرة الحفاظ، جـ٣، ص١١٥٥. السيوطى: طبقات الحفاظ، ص٤٣٧. أبو عبد الله الدمشقى: طبقات علماء الحديث، جـ٣، ص ٣٥٢، ٣٥٣.

(٥) سبط بن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، ص٤٣.

(٦) سبط بن الجوزى: المصدر نفسه، جـ٨، ص١١٧.

(٧) محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ص١٠.

هبة الله بن على بن جعفر البغدادى الحافظ المعروف بابن ماكولا (ت نيف و٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م) كان لبيبا عالما حافظا ترشح للحفظ حتى يقال له، الخطيب الثانى طاف الدنيا وأقام ببغداد، وله كتاب الإكمال فى رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف فى الأسماء والكنى والأنساب، وضع الأمير كتابه هذا وفق منهج عملى مفيد واتجه فى تصنيفه نحو العمل الموسوعى. أرسله الخليفة المقتدى بالله رسولا إلى سمرقند لأخذ البيعة له على ملكها طمغاج خان[١].

وأبو سعيد يحيى بن على بن الحسن البزاز، المعروف بابن الحلوانى (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) قرأ المذهب على الشيخ أبى إسحاق، وبرع حتى التحق بالأئمة المناظرين، وصنف فى المذهب كتابا سماه التلويح، ودرس بالنظامية وولى حسبة بغداد ثم تركها، ودخل سمرقند رسولا من الخليفة ومات بها[٢]. وكذلك الحسين بن على بن أبى القاسم اللامشى السمرقندى الحنفى (ت٥٢٢هـ/١١٢٨م) كان إماما فاضلا متدينًا يضرب به المثل فى النظر وعلم الخلاف، وكان على طريقة السلف من طرح التكلف والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كان يدخل على الملوك ويقول الحق فى وجوههم. قدم رسولا من خاقان سمرقند إلى دار الخلافة فقيل له ألا تحج عامك هذا؟ فقال لا أجعل الحج تبعا لرسالتهم، فعاد إلى بلده[٣].

---

(١) ابن جماعة: مشيخة قاضى القضاة، ص١٢٧. الذهبى: تذكرة الحفاظ، جـ٤، ص١٢٠١، ١٢٠٣. ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، جـ٥، ٥١٣، ٥١٤. ابن ماكولا: الإكمال فى رفع الإرتياب، جـ١، ص٢٩ - ٣٢. أبو عبد الله الدمشقى: المصدر نفسه، جـ٣، ص٣٩٣، ٣٩٥. فاطمة محجوب: الموسوعة الإسلامية، جـ٢، القاهرة، ١٩٩١م، ص٩١.

(٢) ابن قاضى شهبة: طبقات الفقهاء الشافعية، جـ١، ص٢٨٣، ٢٨٢.

(٣) ابن الأثير: اللباب فى تهذيب الأنساب، جـ٣، ص٤٠٢. الذهبى: المشتبه فى الرجال، جـ٢، ص٦٦٣. سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، القسم١، جـ٨، ص١٢٧. السمعانى: الأنساب، جـ٥، ص٦٧١. السمعانى: التحبير فى المعجم=

مرت الجغرافيا بعدة مراحل أدت إلى تطورها، ويهمنا هنا فى فترة البحث تلك المرحلة التى امتدت من القرن الرابع الهجرى إلى القرن السادس الهجرى، عندما وصلت الدراسات الجغرافية إلى قمة ما وصلت إليه الجغرافيا العربية، حيث كانت معلومات كتابها تعتمد بالدرجة الأولى على الدراسة والمشاهدة الميدانية والاختبار الشخصى، مما جعلها ذات ثقة وكفاءة عالية. ولم يكن غالبية كتابها فى الحقيقة سوى رحالة علميين، ويمكن القول أن الرحلة كانت هى الأساس فى هذا النوع من الكتابة[1]. ويعد ازدهار هذا النمط الجديد من الكتابة الجغرافية العربية ثمار ظروف الدولة الجديدة عن تلك البلدان النائية وشعوبها. فلابد للحكام أن يتعرفوا على طبائع السكان وتقاليدهم، وعلى إنتاج البلاد الزراعى والصناعى وثرواتها حتى يمكن تقدير خراجها، كما لابد لهم من التعرف على أسماء مدنها والطرق المؤدية لها[2].

استفاد المؤلفون من إمكانات السفر الجديدة التى سادت رقعة واسعة من العالم الإسلامى وهى اتساع شبكة طرق المواصلات وإقامة المنائر ليهتدى بها المسافرون، وتوفر درجة معقولة من الأمن فيها التى قام بها السلطان ملكشاه[3] فاخذوا يشدون الرحال ويطوفون فى البلدان شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، وكانوا يشعرون فى أى بلد يحلون فيه كأنه بلدهم. فأمكن لأولئك الجغرافيين أن يجمعوا معلومات جديدة عن ممالك الإسلام، عن طريق

=الكبير، جـ١، ٢٣٤ - ٢٣٦. أبو عبد الله الدمشقى: طبقات علماء الحديث، جـ٤، ص٤٤. ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار، جـ٦، ص١٠٠، ١٠١. ابن الفوطى: مجمع الآداب، مج٢، ص٥٨. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص١٩٩..

(١) شاكر خصباك: الجغرافية عند العرب، ص١١.

(٢) شاكر خصباك: المرجع نفسه، ص١١.

(٣) ابن كثير: المصدر نفسه، جـ١٢، ص١٤٢. محمد محمود إدريس: تاريخ العراق والمشرق الإسلامى، ص١٩٩. محمود شاكر: التاريخ الإسلامى، جـ٢، ص٢٣١.

المشاهدة الشخصية والسؤال والاستقصاء، ولم يعتمد أولئك الكتاب على أنفسهم فحسب فى جمع المعلومات، بل ساهم التجار فى إغناء معلوماتهم مساهمة عظيمة، ولعبت التجارة دورا هاما فى تطور المعرفة الجغرافية لرواد هذه المدرسة(١).

لعل من أبرز الأمثلة التى تؤيد ذلك " كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق" للشريف الإدريسى محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الصقلى القرطبى (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٤م) رحل إلى المشرق العربى لزيارة مصر وغيرها ثم عاد إلى سبته فى المغرب، حيث استقدمه رجار الثانى ملك صقلية إليها ليستقر بها مقربا من بلاط الملك الذى بالغ فى تعظيمه. وكان تأليف هذا الكتاب بناء على رغبة الملك رجار الثانى فى الوقوف على حقيقة العالم، بكتاب مطابقى للخريطة الكروية المصورة له، غير أنه يزيد عليها بوصف أحوال البلاد وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها ومسافاتها مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم، وأمضى الإدريسى فى جمع وترتيب مادة كتابه قرابة خمسة عشر عاما، وقسم كتابه إلى مقدمة وسبعة أبواب، وامتاز هذا الكتاب عن غيره من المؤلفات الجغرافية السالفة عليه بأنه يحمل تصورا عاما يشمل الكرة الأرضية كلها على أنها كل واحد جدير بالوصف والتحقيق، المبنى على المشاهدة، والقياس، والمقارنة، والربط بين الأجزاء. وترجع أهمية النزهة إلى أن جل اعتماد الإدريسى فى جمع مادته على الجوالة والتجار، بمعنى شاهد العيان مع امتزاج كل ذلك بمشاهدات الإدريسى عينه وخبراته كرحالة وجغرافى وخرائطى(٢).

---

(١) الإدريسى: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مج١، المقدمة. شاكر خصباك: الجغرافية عند العرب، ص١٢.

(٢) الإدريسى: المصدر نفسه، مج١، المقدمة.

كما يعد أبو عبد الله وأبو حامد محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن أبى الربيع المازنى القيسى الأندلسى الغرناطى (ت٥٦٥هـ/ ١١٦٩م) من كبار الجغرافيين من علماء تخطيط البلدان، رحل إلى المشرق ودخل بلاد ما وراء النهر وجمع كل ما رآه فى أسفاره من عجائب البلدان[١] ولفت نظره ما وجده فى سمرقند من الكواغيد التى عطلت قراطيس مصر[٢] وذكره فى كتابه تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، وهو فى صفة الدنيا وسكانها وصفة عجائب البلدان، وغرائب البنيان والبحار وعجائب حيواناتها، وجمع فيه ما رآه فى أسفاره من العجائب وله أيضا كتاب نخبة الأذهان، وكتاب عجائب المخلوقات[٣].

يعود الفضل إلى هؤلاء الجغرافيين الإقليميين فى تشجيع كتاب آخرين - لم يكونوا جغرافيين أساسا - على الاهتمام بالمعرفة الجغرافيا ونشرها فى كتاباتهم بصورة غير منهجية. تبحث فى أخبار البلدان، وتميل إلى الاهتمام بعجائبها، كما تشتمل على كثير من المعلومات المتنوعة عن البحار والمناخ والكواكب والحيوان والنبات، وكان يكتب هذا النوع من الكتابات كتاب ذوو اختصاصات متعددة، لكن غالبيتهم كانوا من المؤرخين[٤].

ويمكن القول إن تاج الإسلام أبى سعد عبد الكريم السمعانى (ت٥٦٢هـ/ ١١٦٦م) كان على رأس هذا النمط من الكتابة، حيث اتسعت رحلته فعمت بلاد خراسان وأصبهان وبلاد ما وراء النهر والعراق والحجاز وحج مرتين وعاد إلى وطنه[٥] وفى رحلته إلى بلاد ما وراء النهر صحب معه

---

(١) الغرناطى: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص٥.

(٢) الغرناطى: المصدر نفسه، ص٣٩.

(٣) الغرناطى: المصدر نفسه، ص٥.

(٤) شاكر خصباك: الجغرافية عند العرب، ص١٢.

(٥) الجوينى: عتبة الكتبة، ص٨٦. السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، جـ٧، ص٢٤٠،=

ولده أبا المظفر عبد الرحيم واستغرقت هذه الرحلة ثلاث سنوات طاف بمختلف مدن ما وراء النهر فزار بخارى وسمرقند وكرمينية وسمع بهذه المواضع وأسمع ولده[1]. ولما كانت رحلاته تلك من أجل العلم، فقد التقى بالعديد من الشيوخ والعلماء الذين تكبد مشقة الرحلة وصعابها من أجل الالتقاء بهم والتعرف عليهم حتى ينهل من مناهلهم ويرتوى بمعارفهم.

وقد جمع السمعانى حصيلة رحلاته المتعددة فى كثير من المصنفات ومنها كتاب " الإسفار عن حكم الأسفار" ويقع فى خمسة وعشرين مجلدا. وكتاب "معجم البلدان" فى خمسين مجلدا[2] وكتاب ذيل تاريخ بغداد" للخطيب البغدادى الذى يقع فى أكثر من نحو خمسة عشر مجلدا. وكتاب "تاريخ مرو" مسقط رأسه وموطن أهله وعشيرته ويقع فى عشرين مجلدا[3]. ولعل أشهر كتب السمعانى ومصنفاته على الإطلاق كتاب "الأنساب"[4] وأبرز ما تميز به هذا الكتاب، تلك التراجم التى جمعها على حروف المعجم، والتى عنى بنسبة كل واحد منهم إلى بلد أو قبيلة أو صناعة أو تجارة أو غير

=١٨١. السمعانى: الأنساب، جـ١، ص١١. القفطى: إنباه الرواة على أنباه النحاة، جـ١، ١٦٧. عبد الصاحب عمران الدجيلى: أعلام العرب فى العلوم والفنون، جـ١، ص٢٨١، ٢٨٢. ناجى معروف: عروبة العلماء المنسوبين إلى البلدان الأعجمية فى خراسان، جـ١، ص٤٦٤.

(١) البخارى: التاج المكلل، ص٧٦. منيرة ناجى سالم: تاج الإسلام أبو سعد السمعانى وكتابه التحبير فى المعجم الكبير، ص٢١٣.

(٢) السمعانى: المصدر نفسه، جـ١، ص ١١. ابن الملقن: العقد المذهب فى طبقات حملة المذهب، ص١٣٥.

(٣) القفطى: المصدر نفسه، جـ١، ص١٦٧. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص٢٦٦.

(٤) سراج الدين أبى حفص المصرى: طبقات الأولياء، ص٤٠.

ذلك[1]، وبالتالى مثل كتاب الأنساب أهمية كبرى بالنسبة لجغرافيا العالم الإسلامى فى العصور الوسطى، وله أيضا كتاب" فضائل الشام" وكتاب نزوع إلى الأوطان" يتناول فيه الحديث عن تأسيس مدينة سرخس[2].

وبتفكك الدولة الإسلامية وانحلالها سياسيا فقدت المعرفة الجغرافيا الصرفة أصالتها منذ أواخر القرن السادس الهجرى وتقلصت رقعة الدولة الإسلامية، وانقسمت إلى إمارات شبه مستقلة ولم يعد هناك من حاجة إلى الكتب الجغرافيا بالنسبة للحكام، ولم يستطع الكتاب اللاحقون أن يضيفوا أى جديد إلى علم الجغرافيا واقتصروا على مهمة الاقتباس من مؤلفات السابقين، وتنوعت الأنماط الجغرافيا لهذه المرحلة إلا أن التركيز كان على المعاجم الجغرافية والموسوعات والرحلات[3]. ويعتبر نور الدين محمد بن محمد بن يحيى بن طاهر ابن عثمان العوفى البخارى أحد روادها، وهو من فضلاء أواخر القرن السادس ومنتصف السابع الهجرى، رحل فى طلب العلم ولقاء الشيوخ فطوف بأكثر بلاد ما وراء النهر وخراسان واتصل بعلماء تلك البلاد وعاش فى خراسان وبلاد ما وراء النهر وقضى أيام صباه فى سمرقند إلى أواخر أيام السلطان محمد خوارزمشاه، ونظرا للاضطرابات السياسية وتواتر أخبار الغزو المغولى هاجر إلى بلاط سلطان البنجاب ناصر الدين قباجه[4].

بدأ محمد عوفى فى تأليف كتاب جوامع الحكايات ولوامع الروايات قبل سنة (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م) وأتمه بعد عام (٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م) وكمية

---

(١) أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص٢٢٦. زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ص ٦٨، ٦٩.

(٢) أحمد رمضان أحمد: المرجع نفسه، ص ٢٦٨، ٢٦٩.

(٣) شاكر خصباك: الجغرافية عند العرب، ص ١٢، ١٣. نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب، ص٥٨.

(٤) أمين عبد المجيد بدوى: القصة فى الأدب الفارسى، ص ٣٦٠، ٣٦١. كراتشكوفسكى: تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ص ٣٥٤، ٣٥٥.

الجغرافيـة فيه ليست بالمهملة بل كـانت ذات قيمة عالية، فـإلى جانب النقاط العديدة المنتشرة خـلال الأقسام المختلفة للكتاب تفوز الجـغرافية بمعناها الواسع بالبـابين السادس عـشر والسابع عـشر من القـسم الرابع، وتبـدو خلال ذلك محاولة ملحـوظة لعرض المادة فى صورة منظمة للعـالم كما يراه الجغـرافيون مزودة بمعلومات عن بعض الشعوب التى تقطن الأقاليـم المختلفة فيتحدث عن الجغرافية الطبيعية ثم يلى ذلك تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم(١).

يجدر بنا هنا أن نتحـدث عن أهم الرحالة والجغرافيـين الصينيين الذين صحبـوا جيش جنكيزخان أثناء غزوه لبـلاد السلطان خوارزمشاه ويعتـبر ليو- جيو- تساى (ت٦٤١هـ/ ١٢٤٣ م) من كبار علماء الجغرافية والفلك والحكمة. وكان قد وقع فى أسر جنكيز خان عندما غزا بكين سنة (٦١٢هـ/ ١٢١٥م) ثم أطلق سراحه لما تأكد من كفاءته، وضـمه إلى بلاطه ورفع مكانته وصحبه فى غزوه لبـلاد ما وراء النهـر وإقليم الصغـد (٦١٦هـ/ ١٢١٩م) وخلف لنا هذا الرحال كتابا به وصف للبلاد والمواضع التى مـر عليها، ولكن لسوء الحظ فقد أصل الكتاب ووجـد ملخص" لـه يوصف لنا جـغرافيـة آسيـا فى العصـور الوسطى مع رسم صـورة مشـوقة لعبـور جيش المغـول من منغوليـا إلى بلاد آسيا(٢).

كما تعد رحلة الراهب الناسك كـيو شانج شون ـ من بكين إلى بلاد ما وراء النهـر من أهم الكتب التى وصـفت البـلاد والمواضع وأهـم العـادات والعجـائب والغرائب المـوجودة فى تلك البـلاد. وكان هذا الراهب ذا هيـبة ومكانة عظيمة فى بكين فأرسل إليه جنكيز خان يدعوه ليحضر إلى بلاطه بعد أن سمـع برجاحـة عقله، واضطر الراهب رغم أنفـه إلى الاستـجابة لـدعوة

---

(١) كراتشكوفسكى: المرجع نفسه، ص٣٥٥.

(٢) Bretschneinder, Medieval Researches from Eastern Asiatic Sources,vol..1,pp 9,10.

الغـازى وترك حيـاة التنسك وعرض نفـسه لمخـاطر الرحلة الطويلة إلى آسـيا الوسطى ووصل إلى سمرقنـد وقضى بها فصل الشتـاء وكان ذلك بعد تحطيم جنكيز خان لهـا ثم رحل عنها إلى معسكر جنكيـز خان لمقابلته، واسـتغرقت هذه الرحلة ثـلاث سنوات، وكـتـبت تفـاصـيل هذه الرحـلة بواسطة أحـد تلاميذه[1].

علم الكلام[2]

كثرت تعريفات المتكلمين والباحـثين لهذا العلم، ومنها: أنه علم يقتدر به على إثبـات العقـائد الدينية، بـإيراد الحجج عليـها ودفع الشـبه عنهـا[3] ويتضمن هذا التـعريف أن المتكلم يتخذ العـقائد الدينية قضايا مـسلما بها ثم

---

(١) Ibid, pp35,79,82.

(٢) يـسمى علم الكلام بعلم التـوحيد أو علم التوحـيد والصفات، وسمى أيـضا علم أصول الدين لأنه يتـعلق بالأحكام الأصليـة أو الاعتـقـادية فى مقـابل علم الفـقه الذى يتـعلق بالأحكام الفرعية أو العـملية. حيث كان النظر فى الدين بأحكامه وعقائده يسـمى فقها، ثم خصت الاعـتقادات باسم الفـقه الأكبـر، وخصت العمليـات باسم الفقه. وسـميت مباحث الاعتقادات كما أسلفنا بعلم الـتوحيد و الصفات. أو علم الكلام لأن أهم مسألة احتـد فيها الجـدل بين العلماء هى مـسألة كلام الله وهل هو قـديم أو مخلوق، أو لأنه يورث قدرة على الكلام فى الشرعيات أو لأنه كثر فيه الكلام مع المخالفين ما لم يكثر فى غيره. السـمعانى: الأنساب، جـ٥، ص١٩٠. أحمد محمـود صبحى: فى علم الكلام دراسة فلسـفيـة لأراء الفرق الإسلامـية فى أصـول الدين، جـ١، الإسكندرية، ١٩٧٨، ص٩، ١٠. دى بور: تاريخ الفلسفة فى الإسلام، ترجمة مـحمد عبد الهادى أبو ريدة، ط٥، القـاهرة، ١٩٤٨، ص٩٥. عامـر النجـار: علم الكلام عـرض ونقد، القـاهرة، ٢٠٠٣، ص٦. عبد المنعم الحفنى: موسوعـة الفرق، مطبعة الإرشاد، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٨٥.

(٣) حاجى خليـفة: كشف الظنون، جـ٢، ص١٥٠٣. طاش كبـرى زاده: مفتاح السـعادة، جـ٢، ص١٥٠. عامر النجار: المرجع نفسه، ص٥.

يستدل عليها بأدلة العقل حتى وإن أمكن الاهتداء إلى هذه العقائد بالعقل مستقلا عنها، أما العقائد الدينية أو أصول الدين فأهمها التوحيد والنبوة والمعاد، وبالأحرى الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الأخر، وتدور هذه المسائل جميعا حول الله ذاتا وصفات وأفعالا[١]، وهو العلم بالقواعد الشرعية الاعتقادية المكتسب من أدلتها اليقينية[٢].

بينما عرفه ابن خلدون "بأنه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف أهل السنة"[٣]. وعرفه الغزالى "بأنه إدراك الحقيقة الدينية إدراكا يؤيده العقل، حتى تكون فى درجة العلم الرياضى، دقة ووضوحا"[٤].

إذا تأملنا التعريفات السابقة فإنه يمكننا القول بأن علم الكلام هو العلم الذى يقوم على إثبات العقائد الدينية عن طريق الأدلة العقلية[٥]، ولاشك أن تعريف ابن خلدون قاصر عن أداء المراد فان هذا العلم يدخل فيه كل حجاج بالأدلة العقلية على إثبات العقائد الدينية سواء كانت صحيحة أو غير صحيحة[٦]. وهذا العلم يبحث فى مسائل عقيدية دقيقة مثل حقائق الصفات

---

(١) أحمد محمود صبحى: المرجع نفسه، جـ١، ص٢.

(٢) سليمان بن على بن صالح بن عبد العزيز الغصن: موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، جـ١، ص٢٠.

(٣) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٤٥٨. عصام الدين محمد على: آفاق الحضارة الإسلامية والأوربية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٣، ص٣٧٥.

(٤) الغزالى: تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧، ص٥٥.

(٥) على عبد الفتاح المغربى: الفرق الكلامية الإسلامية، دار التوفيق النموذجية للطباعة، القاهرة، ١٩٨٦، ص١١.

(٦) سليمان بن على بن صالح بن عبد العزيز الغصن: موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، جـ١، ص٢١.

الإلهية والقدر والشر وأعمال العباد والحياة الآخرة وحقيقة النبوة[1]. وكادت نواة علم الكلام تنشأ فى حياة الرسول ولكنه ﷺ، قضى عليها ونهى أتباعه عن الخوض فى مسائل الغيب، ووجههم الوجهة السليمة. ومن ثم كان الصحابة والتابعون راسخى الإيمان بكتاب الله وسنة رسوله، يتحرجون من الخوض فى متشابه القرآن والسنة تحاشيا للزلل والخطأ[2].

لكن بابتعاد عصر النبوة وموت كثير من الصحابة، وكثرة الفتوحات الإسلامية، واختلاط المسلمين بغيرهم من أهل العقائد الأخرى، وما ترتب عليه من إثارة هؤلاء بعض الشبهة حول العقيدة الإسلامية، اضطر علماء المسلمين إلى الرد عليهم بمثل منطقهم للدفاع عن العقيدة[3]. وكان ذلك بدوره دورًا حتميًا فى تطور العقيدة، وهو أن يستدل على الإيمان بالعقل وتحمل المعتزلة وزر الخوض عما نهى الرسول ﷺ عنه. وكان طبيعيا أنهم لقوا إعراضا من التابعين ومن الفقهاء وأهل الحديث. هكذا نشأ علم الكلام غير معترف به كعلم من علوم الدين لدى علماء المسلمين طوال عصر المعتزلة أى القرنين الثانى والثالث الهجريين، ولكن لم يحل عدم الاعتراف دون نشأة هذا العلم[4].

على أنه أصبح واضحا كل الوضوح إبان القرن الرابع للهجرة ألا مفر من بعض التسليم بما ذهب إليه المعتزلة إذ تبلبلت أفكار الناس، ومست الحاجة إلى تعزيز قواعد الدين من جديد على ضوء الفلسفة الشائعة. واضطلع بهذا الأمر رجلان كان لهما الفضل فى تأسيس علم الكلام. وهما أبو الحسن

---

(١) محمد عادل عبد العزيز: الحضارة الإسلامية، ص١٨٨.

(٢) سليمان بن على بن صالح بن عبد العزيز الغصن: المرجع نفسه، ص٤٠، ٣٩. محمد عادل عبد العزيز: المرجع نفسه، ص١٨٨.

(٣) على عبد الفتاح المغربى: المرجع نفسه، ص٤٧.

(٤) أحمد محمود صبحى: فى علم الكلام، جـ١، ص٤٠٧.

الأشعرى الشافعى من بغداد (ت٣٢٤هـ/ ٩٣٥م)[١] وأبو منصور الماتريدى الحنفى من سمرقند (ت٣٣٣هـ/ ٩٤٤م)[٢] وقد ظهرا لا على أنهما مؤسسا

---

(١) أبو الحسن الأشعرى: هو على بن إسماعيل بن أبى بشر إسحق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن بردة بن موسى الأشعرى وقيل سمى الأشعرى لأن أمه ولدته وهو أشعر. والأشعر من أولاد سبأ الذين كانوا باليمن ثم بعث النبى رهطا منهم وعلى رأسهم أبو موسى الأشعرى إلى الحبشه*. ونشأ أبو الحسن الأشعرى فى الاعتزال ثم هداه الله إلى الحق، فقام بالذب عن معتقد أهل السنة فى عهد استفحال شرور المعتزلة، مستخدما أدلة خصومه المعتزلة لينقض بها آراءهم وحججهم**. وجاء مذهب الأشعرى بمنهج وسط، فلا هو أهمل العقل، ولا هو عطل النص، وإنما رد للنص منزلته اللائقة به، وجعل للعقل وظيفته هى إدراك النص وفهمه***.

* أبو الحسن الأشعرى: الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق فوقية حسين محمود، دار المنصور، القاهرة، ١٩٧٧، ص٩ - ١١.

** أبو المظفر الاسفرايني: التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الهالكين، ص٥٢. جلال محمد عبد الحميد موسى: نشأة الأشعرية وتطورها، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٨٢، ص١٩٩. محمد إقبال: تطور الفكر الفلسفى فى إيران، ص٥٨.

Gibb, Arabic Literature,London, 1926,pp49,50.

*** المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ٤، ص١٨٤. حيدرلامات: مجالى الإسلام، القاهرة، ١٩٥٦، ص٢٠٢. عامر النجار: علم الكلام، ص٢٧.

(٢) أبو منصور الماتريدى: هو محمد بن محمد بن محمود السمرقندى كان من كبار العلماء تخرج بأبى نصر العياضى، كان يقال له الهدى، له مصنفات كثيرة منها كتاب التوحيد وكتاب المقالات وكتاب رد أوائل الأدلة للكعبى. وهو إمام المتكلمين ومصحح عقائد المسلمين تفقه على أبى بكر أحمد الجوزجانى، وتفقه عليه الحكيم السمرقندى*. وعن مذهب الماتريدى فإنه انطلق من المأثور عن أبى حنيفة فى العقائد ووقف موقفا عقليا مبسطا، فقال بإثبات قضايا الشرع بالأدلة العقلية المنطقية وبالبراهين الدافعة، ولكنه لم يبالغ فى قيمة العقل كما فعل المعتزلة، وإنما اتخذ لنفسه سبيلا وسطا ذلك أنه يأخذ بحكم العقل فيما لا يخالف الشرع، فإذا خالف الشرع وجب الخضوع لحكم الشرع وحده**.

=

مذهب جديد فى علم الكلام ولا على أن لهما رأيا، وإنما حرصا تمام الحرص كما حرص أتباع كل منهما على أن يظهروه أنه للصحابة والتابعين أو بالأحرى لأهل السنة، فاستطاعوا بذلك أن يمهدوا للاعتراف بعلم الكلام وأن يجعلوا منه أحد علوم الدين، بل يحسن للعلماء الخوض فيه، فأزالا بذلك الحرج عن التعرض لجليل الكلام[1].

جدير بالذكر أنه ليس بين الأشاعرة والماتريدية خلاف إلا فى بعض المسائل اليسيرة، كمفهوم الإيمان والإسلام، ومعنى القضاء والقدر، وصفة السمع والبصر والكلام النفسى[2] وهى مسائل - الخلاف - لفظية ومعنوية لا

=* طاش كبرى زاده: طبقات الفقهاء، ص٥٦. الماتريدى: شرح الفقه الأكبر، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، ١٣٢١هـ، ص٥. الماتريدى: تفسير الماتريدى، تحقيق إبراهيم عوضين والسيد عوضين، جـ١، ص٩

**عادل العوا: الكلام والفلسفة، ص٤٩.

(١) أحمد محمود صبحى: فى علم الكلام، جـ١، ص ٤٠٧، ٤٠٨.

Ignace Goldziher, A short History of Classical Literature, p53.

(٢) عبد الرحيم بن على شيخ زاده: نظم الفرائد وجمع الفوائد فى بيان المسائل التى وقع فيها الاختلاف بين الماتريدية والأشعرية فى العقائد مع ذكر أدلة الفريقين، المطبعة الأدبية بسوق الحضارة القديم، ص ١٠، ١٥، ٢٣. أبو زيد شلبى: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٣٣٦. وعلى سبيل المثال لتوضيح الخلافات التى كانت بين الأشعرى والماتريدى فى مسألة الكلام النفسى هل يسمع أم لا: ذهب الإمام الماتريدى ومن تابعه إلى أن الكلام النفسى لا يسمع. بينما ذهب الأشعرى إلى أنه يجوز سماعه، وأن ما سمعه موسى عليه السلام كلامه تعالى النفسى. فالخلاف إنما هو فى الواقع لموسى عليه السلام هل وقع سماع كلامه النفسى تعالى أم لا. فأنكر الماتريدى سماعه الكلام، واستدل بقوله تعالى فلما رآها نودى يا موسى حيث كان المسموع هو الصوت المحدث لله تعالى رتب النداء على أنه رأى النار فالمرتب على المحدث محدث فالنداء محدث. وفى التفسير الكبير لأهل السنة من أهل ما وراء النهر قد أثبتوا الكلام القديم إلا أنهم قالوا إن الذى سمعه موسى=

توجب تبديعا أو تكفيرا. فالإمامان الأشعرى والماتريدى متفقان فى أصل عقيدة أهل السنة والجماعة، وأن الخلاف الظاهر بينهما فى بعض المسائل لا يطعن فى عقيدتهما، فهى أمور فرعية تمت إلى الفروع دون الأصول، ومما لا شك فيه أن الخلاف بينهما لا يوجب الفساد، وأن الاتفاق بينهما يسود أكثر المسائل، وربما ترجع الخلافات القليلة بين الأشعرى والماتريدى إلى الخلافات اللفظية بين الشافعى وأبى حنيفة فى أصولهما(١).

ويعد أبو منصور الماتريدى المؤسس للاتجاه الكلامى فى المذهب الحنفى فى بلاد ما وراء النهر، وتلقى على يده الكثير من التلاميذ والأتباع وامتد آثاره فى أنحاء عديدة من البلاد الإسلامية، وانتشر مذهب الماتريدى مواكبا انتشار المذهب الحنفى، وكان على هذا المذهب جميع ما وراء النهر إلى أقصى ثغور الترك ومرو وبلخ(٢).

لا شك أن السلاجقة لما بدأوا فى بلاد ما وراء النهر فى بيئة سنية تتبع المذهب الماتريدى الحنفى تأثروا بالحركة الفكرية السائدة فى هذه المنطقة، لكن هذا التأثير لم يعد أن يكون تأثيرا عن طريق التقليد، فطبيعتهم البدوية لم تسمح لهم بالتوفيق لأعمال العقل والفكر فى قضايا الدين، ولما كان السلاجقة ليس أهلا للنظر والفكر فإنهم لم يشغلوا أنفسهم بهذه المسائل الفكرية وإنما تركوها للوزراء، لذا كان من الطبيعى أن يختلف موقف السلاجقة من مخالفيهم فى داخل الدائرة السنية باختلاف اتجاهات وزرائهم،

=صوت خلقه الله فى الشجر. أما مشايخ الأشاعرة فقد استدلوا على أن ما سمعه كلامه النفسى بقوله تعالى " وكلم الله موسى تكليما" ولذا قال فى المقاصد اختصاص موسى بكليم الله لسماعه كلامه تعالى الأزلى بلا صوت ولا حرف. عبد الرحيم بن على شيخ زاده: المصدر نفسه، ص ١٥، ١٦.

(١) جلال محمد عبد الحميد موسى: نشأة الأشعرية وتطورها، ص ٢٨٠.

(٢) على عبد الفتاح المغربى: الفرق الكلامية الإسلامية، ص ٣٤١، ٣٤٣.

ومن ثم نستطيع أن نميز فى الموقف السلجوقى من هذه الناحية بين عهدين لوزيرين مختلفين: أولهما عميد الملك الكندرى، الذى وزر لطغرلبك وكان حنفيا متعصبا، وثانيهما نظام الملك الذى كان شافعيا وزر لألب أرسلان وملكشاه[1]. أما الكندرى فاستأذن السلطان فى لعن الرافضة على منابر خراسان، فأذن له، فأمر بلعنهم وأضاف إليهم الأشعرية. وظلت الفتنة قائمة وعلماء الأشعرية مشردين عن أوطانهم حتى توفى طغرلبك (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) وتولى ابن أخيه ألب أرسلان واتخذ لنفسه وزيرا شافعيا هو نظام الملك، فأكرم الأشاعرة وأحسن إليهم وأمر بإسقاط ذكرهم من السب وبنى للأشاعرة المساجد والمدارس[2].

فتدعمت الأشعرية بقوة سياسية مكنتها من إحراز الفوز النهائى على خصومها، فأخذت تزداد حظوة بالنجاح. ولا شك أن للمذاهب الفقهية دورا رئيسيًا فى نشر الآراء الاعتقادية، فالمذهب الأشعرى قد نصره مذهبان فقهيان، هما: المالكية والشافعية، بينما شاعت أراء الماتريدية على يد علماء المذهب الحنفى فحسب. ومن ثم لم ينل الماتريدى شهرة الأشعرى[3].

هكذا كون فكر الأشاعرة والماتريدية مذهب أهل السنة والجماعة فى

---

(١) عبد المجيد أبو الفتوح بدوى: التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنى، ص١٠٨، ١٠٩.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٥٤. الجوينى: لمع الأدلة فى قواعد عقائد أهل السنة والجماعة، ص٢١ السيوطى: تاريخ الخلفا، ص٤٧٨. جلال محمد عبد الحميد: نشأة الأشعرية وتطورها، ص٣٧٣. عبد المجيد أبو الفتوح بدوى: المرجع نفسه، ص١١١

Frank Griffel, Apostasieund Toleranz in Islam, die Entwick lungzual Gazali,s Urle,t Gegen die Philosophie und die Reaktionen der Philosophie, Reviews Ismaili and Fatimid History, Jerusalem Studies in Arabic and Islam, vol.27, 2002, p595.

(٣) بلقاس الغالى: أبو منصور الماتريدى حياته وآراؤه العقدية، تونس، ١٩٨٩، ص٤٣.

أصول العقائد وعرف أتباع المذهبين بأهل السنة، وكما قدر للأشعرى أن يكون له تلاميذ ومريدون ينصرون مذهبه، كذلك كان للماتريدى تلاميذه وأتباعه الذين عملوا على نصرة مذهبه[1]. ومن أعلام المدرسة الماتريدية صدر الإسلام أبو اليسر محمد بن الحسين بن عبد الكريم البزدوى (ت٤٩٣هـ/ ١١٠٠م) قاضى سمرقند، وقضى بهذه المدينة معظم سنى حياته، وفيها قام بنشاطه الأكبر كأستاذ ومؤلف، وفيها أيضا أملى معظم مؤلفاته،وقام بتدريس الفقه وعرف بأنه أقدر المساجلين، وانتهت إليه رئاسة الحنفية فى بلاد ما وراء النهر، وكان قد تلقى تعليمه الأولى على يد أبيه الذى لقنه تعاليم جده عبد الكريم الذى تلقاها بدوره عن أبى منصور الماتريدى، ثم درس أبو اليسر على كبار علماء الحنفية وبعدها انتقل إلى أئمة آخرين[2].

درس البزدوى بجانب دراساته الشفوية ما كتبه علماء الفقه السابقون، ويبدو أنه تعمق فى دراسة آراء الأشعرى كما يظهر من قوله: " لقد درست هذه الكتب سوى كتاب المؤجز، ومقالات لإسلاميين"، وعرف البزدوى من مؤلفات أبى منصور الماتريدى كتاب التوحيد، وكتاب تأويلات القرآن[3].

وللبزدوى مؤلفات كثيرة قيمة من أهمها "كتاب أصول الدين" وهو يضم مختلف النظريات والآراء الكلامية، ويعبر عن المذهب الماتريدى ويتعرض لكل الآراء المتشعبة للتعاليم الدينية منذ بدء الخلاف فى هذه الآراء فى الإسلام حتى العصر الذى عاش فيه المؤلف، ولقد اعتمد البزدوى على آراء الماتريدى الكلامية، وذكرها فى كثير من المسائل وكان يعد دائما الرأى

---

(١) عبد المجيد أبو الفتوح بدوى: المرجع نفسه، ص١١١

(٢) البزدوى: كتاب أصول الدين، تحقيق هانز بيترلنس، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ١٠، ١١، ١٣. الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ١٩،ص٤٩. اللكنوى: الفرائد البهية، ص١٢٥. الزركلى: ترتيب الأعلام على الأعوام، مج١. ص٣٤٨.

(٣) البزدوى: المصدر نفسه، ص١١.

الصحيح المعبر عن آراء أهل السنة والجماعة[1]. وينقسم كتاب أصول الدين فى مجموعه إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الأول ويحتوى على مقدمة تشتمل على استعراض مختصر لعلماء الفقه المسلمين ومؤلفاتهم، ويتبع ذلك فى الجزء الثانى دراسة الأصول الدينية، ويتلوه فى الجزء الثالث تفسير للمذاهب الإسلامية وتفرعاتها، وهو كتاب علمى يشمل أسس العقيدة عند أهل السنة[2].

ومن أهم الأسباب التى أملت على البزدوى تأليف كتابه هذا ما ظهر من البدع والضلالات وما لمسه من عناء الجدل ـ الكلام - بين الناس الذين استمالتهم دراسة علوم الفقه أو القضاء، وأيضا انتهاء عصر الجدل الكلامى والفقهى وقفل بابه بصورة رسمية بإصدار الخليفة القادر قراره الذى اتخذه ضد المعتزلة فى عام (٤٠٨هـ/ ١٠١٧م). هكذا كان الحال فى العصر الذى عاش فيه البزدوى، حيث كان الفقه علما جامدا ومثقلا بأساليب مذهبية تقليدية[3].

ثم أتى العمل الواقعى فانتهت المساجلات الدينية إلى مناقشات عادية وهذا هو السبب المهم فى عودة علماء ذلك العصر إلى البحث الجدلى. وفى المقدمة جاء نص الكتاب الذى يعالج ٩٦ مسألة عن أهم القواعد الفقهية للدين الإسلامى، وقد راعى المؤلف تبويب المسائل بشكل يوحى باتصالها بعضها ببعض اتصالا يسيرا، ويمكن تقسيم الكتاب فى مجموعه إلى تعاليم أصول عقيدية ومباحث فى علم السياسة، هذا إلى جانب موضوعات فلسفية أخرى، وتتخلل هذه الأقسام مشكلات فقهيه، ويتعرض التقسيم إلى المسائل الآتية: من رقم ١ إلى رقم ١٠ " الكلام" . ومن رقم ١١ إلى رقم ٢٢ تعاليم الله

---

(١) على عبد الفتاح المغربى: الفرق الكلامية الإسلامية، ص٣٤٣.

(٢) البزدوى: المصدر نفسه، ص٥.

(٣) البزدوى: المصدر نفسه، ص ٥، ٦.

ومنها المسألة ٢٢ كتتمة لعلم الصفات. ومن رقم ٢٣إلى رقم ٢٥ الرسل. ومن رقم ٢٦ إلى رقم ٣٠ أفعال الناس، ومن رقم ٣١ إلى رقم ٣٦ مواضيع متفردة، ومن رقم ٣٧ إلى ٤٢ الإيمان.[١] والمسألة رقم ٤٢ يورد فيها المؤلف اختلاف الناس فى الإيمان أنه مخلوق أو غير مخلوق وهذا الاختلاف بين أهل السنة والجماعة مع اتفاقهم أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، فقال أهل سمرقند بأجمعهم: " بخلق الإيمان وأنه مخلوق لله تعالى وجهلوا من قال إنه غير مخلوق. . الإيمان مخلوق ظاهر، وهو أن الإيمان عند أهل السنة والجماعة إقرار باللسان وتصديق بالقلب، وهما من أفعاله وجميع مخلوقه لله تعالى فكذا هذان الفعلان[٢].

ويناقش البزدوى كل موضوع من هذه المسائل طبقا لطريقة موحدة ثابتة، إذ يبدأ ببحثها ويذكر القاعدة الفقهية تبعا لتعاليم أهل السنة والجماعة، ثم يليها ما ورد بصددها من آراء المذاهب المخالفة أراء العلماء ثم نقد لها، وكثيرا من الحالات يلجأ البزدوى إلى المناظرة الكلامية فيدع كلا من الطرفين يدلى بوجهة نظره، ويطغى طابع المذهب السنى على كتاب أصول الدين مع مراعاة الاتجاهات والآراء الفقهية الأصلية، وبذلك يضم الكتاب مختلف النظريات الفقهية، كما يعبر عن الإيمان بالمذهب الحنفى الماتريدى ويتعرض لكل الآراء المتشعبة للتعاليم الدينية منذ بدء الخلاف فى الآراء فى الإسلام حتى العصر الذى عاش فيه المؤلف[٣].

فاقت شهرة البزدوى عن طريق تلاميذه شهرته بمؤلفاته. وأشاد بعلمه كل من كتبوا عنه أو عاصروه . وقال عمر النسفى فى كتابه القند: " وكان

---

(١) البزدوى: كتاب أصول الدين، ص٦.

(٢) البزدوى: المصدر نفسه، ص ١٥٤، ١٥٥.

(٣) البزدوى: المصدر نفسه، ص ٧، ٩.

شيخ أصحابنا بما وراء النهر، وكان إمام الأئمة على الإطلاق، والموفود إليه من الآفاق، ملأ الشرق والغرب بتصانيفه فى الأصول والفروع»[1].

كما كان أبو المعين ميمون بن محمد بن محمد بن مكحول النسفى (ت٥٠٨هـ/ ١١١٤م) من أئمة علماء الكلام، نزيل سمرقند، كان من أكبر شخصيات المدرسة الماتريدية ممن ناصروا المذهب الماتريدى بقوة، وهو إمام فاضل جامع الأصول وعالم بارع، له مصنفات جليلة فى علم الكلام، منها: كتاب التمهيد لقواعد التوحيد، وكتاب تبصرة الأدلة، وكتاب العمدة فى أصول الدين، وكتاب بحر الكلام. قال عمر النسفى: " هو أستاذى، كان بسمرقند مدة وسكن بخارى يغترف علماء الشرق والغرب من بحاره ويستضيئون بأنواره»[2]. كذلك يعد الشيخ القاضى الإمام أبو الحسن على بن الحسن بن على بن محمد بن عفان بن على بن الفضل بن زكريا بن عثمان بن خالد بن زيد بن كليب الماتريدى (ت٥١١هـ/ ١١١٧م) من أئمة علماء الكلام، وهو سبط شيخ الإسلام أبى منصور الماتريدى تفقه على جده لأمه، وكان بارعا فى علم الكلام[3].

والإمام العلامة أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل النسفى السمرقندى (ت٥٣٧هـ/ ١١٤٢م) كان من كبار المتكلمين إماما فاضلا أصوليا متكلما صاحب فنون، ألف فى الحديث والفقه والتفسير والكلام وكان

---

(١) طاش كبرى زاده: طبقات الفقهاء، ص٨٦. القرشى: الجواهر المضية، جـ٤، ص٩٩.

(٢) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص ٧٠٦. الزركلى: الأعلام، جـ٧، ص٣٤١. على عبد الفتاح المغربى: الفرق الكلامية الإسلامية، ص٣٤٣. عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، مج٣، ص٩٤٩.

Carole Hillenbrand, Studies in Honour of Clifford Edmund Bosworth, The Sultan,s Turret, Studies in Persian and Turkish Culture, vol.2, Brill,Boston,2000, p318.

(٣) القرشى: الجواهر المضية، جـ٢، ص٥٥٣. النسفى: المصدر نفسه، ص٥٥٩.

متبحرا فى كل علوم عصره[1] له كتاب العقائد النسفية فى علم التوحيد، وهو بمثابة ملخص للعقيدة الماتريدية، به ٥٨ مسألة عقيدية وهو من أشهر ما وضع عن الفقه لمذهب الماتريدى[2]. وأبو أحمد محمد بن أحمد بن أبى أحمد السمرقندى (ت٥٣٩هـ/ ١١٤٤م) نزيل بخارى كان إماما فاضلا فى الفتوى والمناظرة، والأصول والكلام[3]. وأبو الفتح محمد بن عبد الحميد بن الحسن بن الحسين بن حمزة الأسمندى السمرقندى (ت٥٥٢هـ/ ١١٥٧م) كان من فحول الفقهاء من أصحاب أبى حنيفة، ومن كبار فرسان الكلام، مناظرا بارعا، له الباع الطويل فى علم الجدل، ومن مؤلفاته فى أصول الدين، كتاب الهداية فى الكلام أو أصول الاعتقاد[4].

كما كان أبو بكر نور الدين أحمد بن محمود الصابونى (ت٥٨٠هـ/ ١١٨١م) من أشهر علماء الكلام البارزين ممن قاموا بنصرة الماتريدى، ووضح آراءه، تتلمذ على أبى المعين النسفى وقرأ عليه كتاب تبصرة الأدلة، وتناول فى كتابه البداية فى أصول الدين، العقيدة الماتريدية ودافع عن

---

(١) الذهبى: العبر فى خبر من غبر، جـ٢، ص٤٥٢. سعيد نفيسى: تاريخ نظم ونثر در ايران، جلد أول، ص١٢٢. ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، جـ٤، ص١١٥. النسفى: العقائد النسفية، ص٩. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص٩٧٧.

(٢) إبراهيم بن عبد الرحمن الخيارى المدنى: تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، تحقيق رجاء محمود السامرائى، جـ١، ١٩٩٣، ص٤. بلقاس الغالى: أبو منصور الماتريدى، ص٢٠.

(٣) السمعانى: التحبير فى المعجم الكبير، جـ٢، ص٨٤.

(٤) الاسمندى: بذل النظر فى الأصول، ٢٤، ٢٥. الاسمندى: طريقة الخلاف فى الفقه بين الأئمة الأسلاف، ٢٤، ٣١. الجوينى: الدرة المضية فيما وقع فيه الخلاف بين الشافعية والحنفية، ص٧٢م. ابن العماد الحنبلى: شذرت الذهب، جـ٤، ص٢١٠. ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، جـ٦، ص١١٥. أبو الليث السمرقندى: خزانة الفقه، مج١، ص٢٧.

مذهبه بإخلاص، حينما عظم الخلاف بينه وبين الأشاعرة خاصة عندما قام فخر الدين الرازى بزيارة ما وراء النهر وانعقدت هناك مناظرات بين فرعى أهل السنة الأشاعرة والماتريدية . يقول الرازى متحدثا عن ذلك: " لما دخلت بلاد ما وراء النهر وصلت أولا إلى بلدة بخارى ثم سمرقند واتفق لى فى هذه البلاد مناظرات ومجادلات مع من كان فيها من الأفاضل، وكان هناك رجل يقال له الصابونى زعم أنه متكلم القوم" وقد وقع بينهما مناظرة حول الرؤية.

أما موضوعات المناظرات بين الرازى وبين علماء ما وراء النهر من الماتريدية فهى التكوين والبقاء والتكليف بما لا يطاق والكلام، وهى تجسيم نقاط الاختلاف بين فرعى أهل السنة[1].

خلاصة القول كان الاحتكاك الفكرى بين أهل السنة من الأشاعرة والماتريدية فى مدن إقليم الصغد فى العصر السلجوقى أثره الجلى فى ازدياد الحركة العلمية نشاطا، إذ كان كل فريق يرى أن يتسلح أمام الخصوم بكل الوسائل لينتصر على خصمه، فكثرت المصنفات والمؤلفات التى وضعت فى هذا العلم، مما كان له أثره الإيجابى فى ازدهار الثقافة.

علم الفلسفة

الفلسفة كلمة يونانية الأصل بمعنى إيثار الحكمة[2] أو محبة الحكمة[3] من "فيلو" بمعنى محب أو صديق و"صوفيا" بمعنى الحكمة[4]، والفلسفة

---

(١) بلقاس الغالى: أبو منصور الماتريدى، ص٢١. على عبد الفتاح المغربى: الفرق الكلامية الإسلامية، ص٣٤٤.

(٢) نيقوماخس الجاراسينى من شيعة فيثاغورث: كتاب المدخل إلى علم العدد، ترجمة ثابت بن قره، تحقيق ولهلم كوتش اليسوعى، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ص١١.

(٣) التنوخى: نشوار المحاضرة، جـ١، ص٢.

(٤) كان المستعمل فى أول الأمر كلمة صوفيا وحدها فان صوفوس = الحكيم، قد أطلقها=

كما عرفها كبار الفلاسفة هى البحث عن الوجود من حيث هو موجود بقدر الطاقة البشرية، وبإطلاق موضوعها تدخل فيها جميع العلوم من إلهيه وطبيعية ومنطقية ورياضية وغيرها[١] والغاية من الفلسفة النظرية هى معرفة الحق فى رأى أو معتقد فقط. أما الفلسفة العملية، فهى ما لا يكون حصول رأى الاعتقاد بالموجدات غاية وغرضا فقط، بل هو حجة رأى وصواب فكرة، ليطيق الإنسان عمله على تلك الفكرة وليكتسب ما هو الخير فيه. إذن الغاية من الفلسفة هو الخير الذى يرمى إليه فعل الإنسان[٢].

كان بدء تفلسف المسلمين فى مجال العقائد الإسلامية والأحكام الشرعية، ثم انتقل المسلمون من طور التفلسف الدينى إلى طور التفلسف الخالص. ويمكننا أن نميز فى الفكر الفلسفى الإسلامى بين نوعين منه: الفكر الفلسفى فى مجال الشرعيات ويتجلى فى علوم شرعية ثلاثة هى الكلام، وأصول الفقه، والتصوف[٣] والفكر الفلسفى الخالص الذى مهدت له حركة الترجمة[٤].

=هوميروس فى الإلياذة على النجار البارع. ثم استعظم العقلاء أن يسموا أحدهم "صوفوس" "حكيما" فكانوا يسمونه "فيلوصوفوس" صديق الحكمة = فيلسوف. إلا أن هذا الاسم كان يدل أولا على "تهذيب النفس" حتى جاء فيثاغورث(ت٥٠٣ ق. م) فيقال إنه أول من سمى الفلسفة بهذا الاسم. الشهرستانى: موسوعة الملل والنحل، ص١٥١. عمر فروخ: تاريخ الفكر العربى، بيروت، ١٩٦٢م، ص١٩

(١) سليمان بن صالح بن عبد العزيز الغصن: موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، جـ١، ص٢٢. عبد الله نعمه: فلاسفة الشيعة، بيروت، ١٩٣٠، ص١٧.

(٢) عبد الله نعمه: المرجع نفسه، ص١٧.

(٣) Journal of Islamic Studies, vol.6, Herry Corbin, History of Islamic Philosophy, no.1, 1995, p106.

(٤) على اكبر فياض: تاريخ إسلام، تهران، ١٣٢٧، ص٢٢٨.

Gibb, Arabic Literature, P35.

وبعد أن كان المسلمون يتخذون الفلسفة وسيلة للدفاع عن العقائد أصبحوا معنيين بالفلسفة لذاتها، وتعمقوا فى فهم مباحثها وبلغت الفلسفة العقلية أوج ازدهارها ولكن هذا النصر المؤزر كان موقوتا[١]، فسرعان ما تقهقرت الفلسفة فى العصر السلجوقى فى مدن إقليم الصغد، وذلك لأسباب متعددة منها موقف الفقهاء من دراسة العلوم الفلسفية بالإضافة إلى موقف الحكام من ذلك[٢]. فقد قوبلت الفلسفة وهى على رأس العلوم الانسانية والتطبيقية بتعصب ومقاومة شديدين؛ فكل ألوان البحث والاستدلال واللجوء للعقل لحل المعضلات الأساسية يعد فى نظر علماء السنة جسارة كبيرة خارجة عن حد المألوف، بل أكثر من ذلك إلصاق تهمة الكفر والزندقة بالفلاسفة، لهذا ضاع رونق الفلسفة وسائر العلوم الانسانية والتطبيقية وقل رواجها[٣]. ومنذ القرن الخامس الهجرى، حظر تعلم العلوم الفلسفية فى مدارس بلاد ما وراء النهر وخراسان وبقية الممالك الإسلامية. واقتصرت الدراسة على الأدب والعلوم الأساسية[٤].

لما كان العلم الموروث عن النبى عليه الصلاة والسلام هو وحده فى نظر أئمة الدين والفقهاء العلم النافع فقد اعتبروا علوم الأوائل علوما مهجورة تنتهى بالكفر والتعطيل، وكان متكلمو السنة والشيعة على السواء يعادون الفلاسفة والحكماء، ويعتبرونهم أعداء للدين منكرين لوحدانية الله[٥]. ويؤكد ذلك قاسم غنى بقوله: "ويمكن القول بصورة عامة أنه تنوسيت

---

(١) أحمد رمضان أحمد: الدولة العباسية، ص١٦٤، ١٦٠. عادل العوا: الكلام والفلسفة، دمشق، ١٩٦١م، ص٧٩

(٢) مريزن سعيد مريزن: الحياة العلمية فى العراق، ص٤٧٩.

(٣) أحمد كمال الدين حلمى: عمر الخيام، ص٦٥.

(٤) ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص٢٥٠

(٥) أحمد كمال الدين حلمى: المرجع نفسه، ،ص ٦٦.

الفلسفة والعلم الإبداعي والبحث الحر وتجمد كل ما كان يعد مخالفا للمذهب والسياسة[1]. حيث كان الدين والمذهب هما الغرض الأصلي والهدف الأساسي الوحيد في القرن السادس، وحاصل العلوم الدينية هو أن الإنسان إنما خلق من أجل العبودية والعبادة، والغرض من العلم هو معرفة الله والمقصود من العمل هو نيل السعادة الأخروية، ولهذا يجب أن تكون العلوم جميعها خادمة لهذه الغايات. وكل علم وفن لا يفيد هذه العلوم بطريق مباشر أو غير مباشر مضر وباطل"[2].

يقول قاسم غني: " إن العلوم الشرعية كانت موردا لحاجات العامة وضرورية لهم، في حين أن سائر العلوم ولاسيما الفلسفة كانت تعتبر من العلوم المستظرفة والمختصة بالخواص، إذ كانت العلوم الدينية لها صلة خاصة بالشئون المعاشية والمنافع الشخصية، ذلك لأن العلوم الدينية كانت في القرنين الخامس والسادس الهجريين أكبر العوامل لتهيئة المعاش للأفراد. أي أن الإنسان كان بإمكانه أن يصل بمعرفة العلوم الدينية إلى منصب القضاء والوعظ ويتقرب إلى الأمراء والملوك ويكون موضعا لاحترام الخلق والحصول على رفاهية العيش، بينما كان المشتغلون بالعلوم الفلسفية والعقلية يعيشون في الفقر والبؤس وكانت علومهم وحكمتهم سببا لتعاستهم ونكبتهم وكانوا غالبا هدفا لاضطهاد الفقهاء لهم، يفسقونهم ويكفرونهم"[3].

ورغم هذه الصعاب، وجد بعض الحكماء الذين اشتغلوا بالفلسفة وكان ذلك بدافع الذوق الفطري والكلف بالعلم فقط، ومنهم أبو اليسر محمد البزدوي قاضي سمرقند (ت٤٩٣هـ / ١٠٩٩م) درس على كبار علماء الحنفية ودرس بجانب دراساته الشفوية ما كتبه علماء الفقه السابقون، ويبدو أنه تعمق

---

(١) قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام، ص٦٦٢.

(٢) قاسم غني: المرجع نفسه، ص٦٧٧.

(٣) قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام، ص ٦٧٨، ٦٧٩.

فى دراسة أراء الأشعرى والماتريدى وحصل من العلم مـا يحتاج إليه المشرعون والفقهاء، واسـتند البزدوى إلى آيات كثيرة مما يدل على أنه كـان يجيد القرآن الكريم، ومما تجدر مـلاحظته على البزدوى أنه كان كـثيرا ما يتـرك فى " كتابه أصول الدين " المناقشات الفقهية ليتعـمق فى شرح التفصيلات الفلسفية لبعض الآيات القـرآنية المختلـف على تفسـيرها[1] ويمكن تقـسيم هذا الكتـاب فى مجموعه إلى أسس فلسفية وتعاليم أصول عقيدية ومباحث فى علم السياسة، هذا إلى جانب مـوضوعات فلسفيـة أخرى، وتتخلل هذه الأقسـام مشكلات فقهية، ويتعرض التـقسيم إلى المسائل من رقم ١ إلى رقم ١٠ الكلام وأسبابه الفلسفية[2].

والسيد الإمام أبو عبد الله شرف الزمان محمد بن يوسف الايلاقى نزيل سمرقند (ت٥٣٦هـ/ ١١٤١م) كـان من أشهر الفلاسفـة من تلامذة ابن سينا. اجتمعت فيه الفضائل العلمية والعـملية واستوعب بشكل جيد الآراء الفلسفية المنقولة عن ابن سـينا وطلابه، وتبنى أفكار ابن سينا، وكان له دور كـبير فى شرحـها ونشرها، واشـتهر بمخـتصره على كـتاب ابن سيـنا " القانون" ولـه تصانيف كثـيرة مثل كتـاب اللواحق وكتاب دوست نامه وكتـاب سلطان نامه وكـتاب فى إعـداد الاوفـاق وكتـاب الحـيوان، ولـه رتبـة عـالية فى الإفـادة والأنصـاف والتـمـيـيز، ومـن كلمـاته: أن الفلسـفـة علم الكل، وصناعـة الصناعات، كـما قال أمـير الأمراء والمتـفلسف المتشبث بالمبـادئ على حسب الطاقة[3] وجرت مناظرات بين الايلاقى والقـاضى الفيلسوف محـمد الأفضل

---

(١) البزدوى: كتاب أصول الدين، ص ١١، ١٢.

(٢) البزدوى: المصدر نفسه، ص٦.

(٣) البيهقى: تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق محمد كرد على، مطبعة الترقى دمشق، ١٩٤٦، ص١٣١، ١٣٢. البيهقى: تتمة صوان الحكمة، لاهور، ١٩٣٢، ص ١٢٥، ١٢٦. بول غليونى وآخرون: موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، جـ٢، مؤسسة المعارف، بيروت، ص٥١. هشام نشابه: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، جـ٢، ص٦١٧.

عبد الرزاق التركى، الـذى كان حافظا لأكثر مؤلفات ابن سـينا، فلم يتعرض فيها القاضى عبد الرزاق إلا لظواهر كتب ابن سينا. وقتل الايلاقى فى موقعة قطوان بسمرقند على يد الخطا الكفار سنة (٥٣٦هـ/ ١١٤١م)[١].

كـمـا كان شـمس الدين مـحـمـد بن شـرف الحسـينى السـمـرقندى (ت٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م) من كـبار الفـلاسفـة، اشتـغل بالمنطق[٢] ولـه كـتاب "قسطاس الميزان" وهو على مـقدمة ومقالتين: الأولى فى التـصورات والثانية فى التصديقات. وهو صاحب الصحـائف فى الكلام وشرحه أيضا وهو شرح مبسوط[٣]. والإمام فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين الرازى (ت٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) كان من كبار علماء عصره فى العلوم الشرعية والعقلية من أهل الاستدلال والعقل بارعـا في الفلسفة والمنطق، رحل فى طلب العلم

---

(١) هشام نشابه: المرجع نفسه، جـ٢، ص٦١٧.

(٢) كلمة منطق تدل من ناحية اشتقاقها اللغوى على الكلام، فيقال فلان نطق أى تكلم، كما يقال فلان منطيق أى يجـيد صناعة الكلام*. والمنطق هو قوانين يعرف بهـا الصحيح من الفاسـد فى حدود المعرفة للمـاهيات والحجج المفـيدة للتصديـقات، ولم يلق علم المنطق اهتمامـا من قبل العلماء فى فـترة البحث**. والمنطق قسـمـان: تصور - إدراك ساذج لا يصحبه حكم معين ثم تصديق أى اقتناع بأمر بعد ثبوته بالبرهان***.

*محمد عـبد الستار نصار: السلم فى علم المنطق، دار الطباعـة المحمدية، القاهرة، ١٩٧٤، ص٧

** محـمـد عـادل عبد العـزيز: الحضـارة الإسلامـيـة، ص٢٠٣. عمر فـروخ: تاريخ الفكر العربى، ص١٨٤.

*** عمر فروخ: المرجع نفسه، ص١٨٤

(٣) حاجى خليـفة: كشف الظنون، مج٢، ص١٣٢٦. طاش كبـرى زاده: مفتاح السـعادة، جـ١، ص٣٠٤. أحمد شوكت الشطى: مجمـوعة أبحاث عن تاريخ العلوم الرياضية فى الحضـارة العربية الإسلامـية، مطبعة جـامعة دمشق، ١٩٦٤، ص ٥٢، ٥٣. على أكـبر دهخدا: لغت نامه، مج٢٩، ص ٦٢٥.

إلى بلاد ما وراء النهر ودخل بخارى وسمرقند وقامت بينه وبين علمائها الماتريديين مناظرات قوية، وله مصنفات كثيرة أهمها موسوعته جامع العلوم والحكم، ويتضمن السياسة وآداب الملوك كما عرض مشاكل الإمامة وحلول لهذه المشاكل. وكان يحاول إثبات آراء أرسطو والفارابى وابن سينا فى كتاباته[1].

صفوة القول تقلصت الفلسفة وكسدت سوقها فى مدن الصغد خلال العصر السلجوقى، وذلك لأسباب متعددة منها موقف الفقهاء من دراسة العلوم الفلسفية بالإضافة إلى موقف الحكام، ومن ثم قوبلت الفلسفة وهى على رأس العلوم الانسانية والتطبيقية بتعصب ومقاومة شديدين؛ فكل ألوان البحث والاستدلال واللجوء للعقل لحل المعضلات الدينية يعد فى نظر علماء السنة جسارة كبيرة خارجة عن حد المألوف بل أكثر من ذلك إلصاق تهمة الكفر والزندقة بالفلاسفة، لهذا ضاع رونق الفلسفة وقل رواجها، ويمكن القول بصورة عامة أنه تنوسيت الفلسفة وتجمد كل ما كان يعد مخالفا للمذهب والسياسة، حيث كان الدين والمذهب هما الغرض الأصلى والهدف الأساسى الوحيد فى القرنين الخامس والسادس الهجريين.

---

(١) مرتضى راوندى: تاريخ اجتماعى إيران، بخش دوم، جلد هشتم، جابخانه نوبهار، ١٣٧٤، ص ٢٣١، ٢٣٢.

Lambton,State and Government in Medieval Islam, London,1981,pp131,132.

ثانيا: العلوم التطبيقية

تقوم بدراسة الفلك والرياضيات والطب والصيدلة والنبات والكيمياء وغيرها.

١ - علم الفلك

الفلك فى اللغة مدار النجوم واستدارة السماء، فدل بذلك على أنه علم يبحث عن النجوم ومدارها فى السماء، وقد عرفوه بأنه علم يبحث حالة الكواكب وحركاتها ومواقعها ونواميسها وأسباب تغيير مظاهرها وأمكنتها[١].

سمى علم الفلك أو علم الهيئة فى العصور الوسطى بأسماء مختلفة منها أربعة أعم من الأسماء الباقية، وهى. علم النجوم، وصناعة النجوم، وعلم التنجيم، وصناعة التنجيم[٢] مع أن هذه الألفاظ انحصر اصطلاحها فى أيامنا على العلم الباطل الذى غرضه الاستدلال على الحوادث الدنيوية المستقبلية برصد حركات الكواكب ومواقع لنجوم، لكن فى العصور الماضية كانت تطلق سواء على علم الهيئة أم أحكام النجوم أم هذين العلمين معا[٣].

فى الواقع كان للقرآن الكريم أثر كبير فى تطور علم الفلك عند المسلمين، حيث حث على التفكير فى خلق السماوات والأرض، ووردت

---

(١) أحمد شوكت الشطى: مجموعة أبحاث عن تاريخ العلوم الرياضية فى الحضارة العربية الإسلامية، ص١٣. عمر رضا كحالة: العلوم البحتة فى العصور الوسطى، مطبعة الترقى، دمشق، ١٩٧٢، ص١٦١.

(٢) أمين فهد المعلوف: المعجم الفلكى، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٣٥، ص٢٧. حميد مورانى وعبد الحليم منتصر: قراءات فى تاريخ العلوم عند العرب، مؤسسة دار الكتب، الموصل، ١٩٧٤، ص٩٩. كرلونيلو: علم الفلك تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى، جـ١، روما العظمى، ١٩١١، ص١٨.

(٣) على إبراهيم عبنده: الفلك والأنواء فى التراث، ١٩٩٨، ص٢٠٤. كرلونيلو: المرجع نفسه، ص١٨.

آيات قرآنية كثيرة تدلل على قدرة الله وإبداعه فى خلق السماوات والأرض، منها: "انَّ فى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِى الألْبَابِ"(١) وقوله عز وجل: "أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ"(٢). كما وردت آيات عديدة حول الظواهر الفلكية منها: "وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ، لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ"(٣). و"اللّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ"(٤) "وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"(٥) حقا كانت الأجرام السماوية آيات مبصرة تشير إلى عظمة خالقها وقدرته.

كان لارتباط بعض أحكام الدين الإسلامى بالظواهر الفلكية دور كبير فى اهتمام المسلمين بأمور الفلك اهتماما كبيرا. فكانت متطلبات الدين الإسلامى ذات ضرورة لرصد دائم لقبة السماء الزرقاء، لأن الشريعة وضعت قوانين ثابتة بفروض العبادة، لذلك كان للمسلمين حاجة ماسة إلى علم النجوم لتعيين أوقات الصلاة، فكان يتطلب من المسلم الذى يريد إقامة الصلاة الاتجاه إلى القبلة فى الكعبة؛ وذلك يقتضى معرفة سمت القبلة. ولأن زمن

---

(١) آل عمران: آية ١٩٠

(٢) الأنبياء: آية ٣٠.

(٣) يس: الآيات ٣٨ـ٤٠.

(٤) الرعد: آية ٢.

(٥) النحل: آية ١٢

الصلاة يختلف حسب الموقع الجغرافى، وحركة سير الشمس فى دائرة البروج، وكذلك صلاتا الكسوف والخسوف اللتين تتطلب معرفتهما استعمال الجداول الفلكية الأزياج، وكذلك معرفة أحوال الشفق وهلال رمضان شهر الصوم، وإثبات موعدى العيدين الفطر والأضحى، لذلك كله كان لعلم النجوم لدى المسلم معنى دينى عميق[1].

فالنجوم ومجموعاتها وأفلاكها وأبعادها والشمس وحركتها والقمر وأطواره ومنازله والسماء وما حوت وتعاقب الليل والنهار والشروق والغروب، كل ذلك يرى فيه المؤمن الخاشع دلائل صدق وشواهد حق على وجود الخالق وقدرته العظيمة[2]. فلا جدال أن علماء مدن الصغد بعد أن استوعبوا المعارف القديمة لأسلافهم من علماء الأمم السابقة استهوتهم الحقيقة بذاتها عن طريق البحث العلمى والأرصاد، فبدأوا فصلا جديدا فى تاريخ علم النجوم فأبدعوا فيه[3].

بذل علماء الفلك المسلمون فى سمرقند جهودا كثيرة، واستخدموا

---

(٣) حميد مورانى وعبد الحليم منتصر: قراءات فى تاريخ العلوم عند العرب، ص١٠٣. عباس العزاوى: تاريخ علم الفلك فى العراق وعلاقاته بالأقطار الإسلامية والعربية فى العهود التالية لأيام العباسيين، مطبعة المجمع العلمى العراقى ١٩٥٨، ص١٧. غادة حجازى قدومى ومحمد عيسى: العلوم عند العرب والمسلمين، مقتنيات دار الآثار الإسلامية، الكويت، ١٩٨٤، ص١٠. عبود قرة: الإبداع العربى فى علم الفلك، مجلة التراث العربى، العدد ٩٠، ٢٠٠٣، ص١٦٩.

(٤) عبود قرة: المقال نفسه، ص١٦٩

(٥) وقد صار جاريا على ألسنة الناس القول بأن العلوم ثلاثة، الفقه للأديان، والطب للأبدان، والفلك للأزمان. على إبراهيم عبنده: الفلك والأنواء فى التراث، ص١٨١. عبود قرة: المقال نفسه، ص١٦٩.

المراصد[1] والآلات الفلكية، كالأزياج[2] والاسطرلابات[3] وغيرها، وجهزت تلك المراصد بأدوات عديدة منها: مقياس الارتفاع والإسطرلاب والمزولة[4]. ومن أشهر علماء الفلك القدامى فى سمرقند أبو حامد أحمد الصاغانى (٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) كان يتقن عمل الاسطرلاب والآلات الرصدية الأخرى، وصنف رسالة فى عمل الاسطرلاب وقوانين الهيئة[5].

---

(١) المراصد: هى مواضع المراقبة مركز على الحدود لمراقبة المرور واستيفاء الرسوم - واصطلاحا بناء علمى تطبيقى مجهز بأدوات خاصة لدرس مسار النجوم والشمس والقمر ومراقبة الخسوف والكسوف وحساب عدد أيام السنة وتنظيم الجداول الفلكية. عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، ص٣٧٣.

(٢) الأزياج: هى جداول فلكية مبنية على قوانين رياضية تبين حركة كل كوكب، ويعرف منها مواقع الكواكب فى أفلاكها، ومنها أيضا تعرف تواريخ الشهور والأيام والتقاويم المختلفة*. ويعرفه كرلونلينو فيقول كلمة أصلها من اللغة البهلوية، ومعناه السدى الذى ينسج فيه لحمة النسيج ثم أطلق الفرس هذا الاسم على الجداول العددية لمشابهة خطوطها الرأسية بخيوط السدى**.

* أحمد شوكت الشطى: مجموعة أبحاث عن تاريخ العلوم الرياضية فى الحضارة العربية الإسلامية، ص١٨. على عبد الدفاع: نوابغ علماء العرب والمسلمين فى الرياضيات، القاهرة، ١٩٧٨، ص٤٤.

** كرلونيلو: علم الفلك تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى، جـ١، ص٤٢. على فهمى شتا: العلم الإسلامى، مجلة الدارة، العددان ٣، ٤، ١٩٧٦، ص٢٢٩.

(٣) الاسطرلاب: هو مقياس النجوم وهو كلمة يونانية الأصل" اصطرلابون" من اصطر هو النجم ولابون هو المرآة. وفى المعجم الفلكى: الاسطرلاب ذات الصفائح، آلة اخترعها هباردیوس تقاس بها دوائر الكرة. البيهقى: تاريخ حكماء الإسلام، ص٩١. غادة حجازى قدومى ومحمد عيسى: العلوم عند العرب والمسلمين، ص١٣.

(٤) رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف محمد العربى شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص١٩٥.

(٥) مريزن سعيد مريزن: الحياة العلمية فى العراق، ص٧٥. ناجى معروف: المراصد الفلكية ببغداد فى العصر العباسى، بغداد، ١٩٦٧، ص١٣.

كان فى قصور الملوك والسلاطين والأمراء طوال القرون القديمة والوسطى فلكيون عديدون لا يقومون فى أغلب الأحيان إلا بالقليل من الرصد الفلكى، أما عملهم الحقيقى فينحصر فى التنجيم[١] فكان فى عسكر السلطان محمد خوارزمشاه رجل تركى يعمل بالحجارة فينزل المطر فى أى وقت شاء السلطان" وسأل التركى أهذه الأحجار معدنيا؟ قال: كلها حيوانى، تخرج من كروش بعض الخيول والبقر والديوك"[٢].

أما كتاب جهار مقاله لنظامى عروضى السمرقندى فيشتمل على أربع مقالات فى بيان الشروط الواجب توافرها فى أربع طبقات لا يستغنى الملوك عن خدماتهم وهم: الكتاب، والشعراء، والمنجمين، والأطباء. ويقول لا يمكن أن تنجح أعمال الملك إلا إذا درست وحسبت فصول السنة من قبل المنجمين. وخص كل فئة بمقالة من المقالات المشار إليها، وتحدث فى بداية كل منها عن ماهية الفن والشروط الواجب توافرها فيمن يمارس هذا الفن[٣].

يعد نظامى عروضى السمرقندى من كبار علماء الفلك، ويحكى فى المقالة العاشرة من مقالته الخاصة بالتنجيم فيقول: إنه فى سنة (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م) وقعت الحرب بين السلطان سنجر ومولاى السلطان علاء الدنيا والدين، وهزم جيش الغور وأسر مولاى سلطان المشرق، كما وقع ابن مولاى شمس الدولة والدين محمد بن مسعود أسيرا فى يد أمير السلطان سنجر، فاتفق على دفع خمسين ألف دينار فدية وعلى أن يذهب رسوله إلى

---

(١) بول غليونجى وآخرون: موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، جـ١، ص٢٥.

(٢) البيهقى: معدن النوادر فى معرفة الجواهر، تحقيق محمد عيسى صالحية، دار العروبة، الكويت، ١٩٨٥، ص١١٨، ١١٧.

(٣) براون: الطب العربى، ترجمة داود سليمان على، مطبعة العانى، بغداد، ١٩٦٤، ص٧٩.

القصر ليستعجل هذا المال، فإذا بلغ هراة أفرج عن الأمير، لأنه كان مطلق السراح من قبل السلطان سنجر، وأمر بخلعه عند مغادرته هراة.

يقول نظامى عروضى: "قد قدمت فى هذه الحال لأكون فى خدمته، وقد بلغ منه الحزن يوما فسألنى متى الخلاص ومتى تصل هذه الرسالة فأخذت الارتفاع بهذا الاختيار، وأصعدت الطالع فى ذلك اليوم، باذلا كل جهد؛ وقد بدأ مفتاح الفرج لهذه الشدة فى اليوم الثالث فجئت إليه فى اليوم التالى وقلت: غدا عند صلاة الظهر يأتى الرسول. وبالفعل فى آذان الظهر أحضر الفداء وفى اليوم التالى لبس الأمير شمس الدولة والدين خلعة السلطان سنجر وأصبح طليقا فحث السير إلى بلده، وعطف على النظامى وأعطاه الذهب الكثير[١] وينسب إلى نظامى عروضى السمرقندى كتاب صدباب ـ مائة موضوع ـ كما ينسب إليه رسالة فى الاسطرلاب[٢].

مما يجدر الإشارة إليه أن نظامى عرضى سمرقندى كان من تلاميذ عمر الخيام[٣] وكان يكثر من ذكره فى المقالة الخاصة بعلم النجوم والمنجمين[٤]. مما يؤكد الصلة الوثيقة بينهما وتأثره به فى هذا الفن، وكان الخاقان شمس الملك يعظم عمر الخيام ويجلسه معه على سريره[٥].

كما يعد الحكيم الحسين السمرقندى من كبار علماء الفلك فى القرن (٦هـ/ ١٢م) وهو أحد تلاميذ الحكيم أبى الفتح عبد الرحمن الخازن الذى

---

(١) النظامى العروضى السمرقندى: جهار مقاله، ص٧٢، ٧٣.

(٢) العروضى السمرقندى: المصدر نفسه، ص١٥١.

(٣) Mousavi with Hillenbrand, Mausoleums of Poets and Mystics, vol.2,London, 2001, p195.

(٤) زهير حميدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية فى العلوم الأساسية والتطبيقية، مج٢، دمشق، ١٩٩٥، ص١٥٧.

(٥) أحمد حامد الصراف: عمر الخيام، مطبعة دار السلام، بغداد، ١٩٣١، ص٨٩.

صنف زيجا فلكيا سماه المعتبر السنجرى نسبة إلى السلطان سنجر[1] وله مؤلفات فى قواعد النور وآلات الرصد، وأوضح مقدار انكسار النور بمروره فى الكرة الهوائية، وألف كتابا فى الفجر والشفق، وكتاب ميزان الحكمة من أهم كتب العلوم الطبيعية فى البحث فى كثافة الهواء[2].

وكان شمس الدين محمد بن أشرف الحسينى السمرقندى (ت٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م) من كبار علماء الفلك والرياضيات والمنطق، ومن تصانيفه كتاب الصحائف الإلهية، وكتاب القسطاط، وكتاب فى آداب البحث[3]، ويعد هذا الكتاب من أشهر كتب المؤلف ويشتمل على ثلاثة فصول: الأول فى التعريفات. والثانى فى ترتيب البحث، والثالث فى المسائل التى اخترعها[4]. فضلا عن أبى حامد ركن الدين العميدى السمرقندى (ت٦١٥هـ/ ١٢١٨م) كان من كبار المهتمين بعلم الفلك، له مصنفات قيمة منها رسالة فى الأعمال السحرية[5].

---

(١) البيهقى: تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق محمد كرد على، مطبعة الترقى، دمشق، ١٩٤٦، ص١٦٢، ١٦١.

(٢) حكمت نجيب عبد الرحمن: دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب، الموصل، ١٩٧٧م، ص٢٢٥. محمد عريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية فى العلوم الطبيعية والطب، القاهرة، ٢٠٠٤، ص٢٠٢.

(٣) ابن الجوزى: أعمار الأعيان، ص٢٠. شمس الدين السمرقندى: أشكال التأسيس، شرح قاضى زاده الرومى، تحقيق محمد سويسى، تونس، ١٩٨٤، ص١٧. عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، مج٣، ص١٣٦.

(٤) قدرى حافظ طوقان: تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك، ط٣، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٣ص٤٢٨.

(٥) عبد الله رازى: تاريخ كامل إيران، ص٢٢٥.

٢ - الرياضيات

عرف العرب العلم الرياضى بأنه علم غرضه إدراك المقادير، وأطلقوه على الحساب[١] والجبر والمقابلة[٢] والمثلثات[٣] والهندسة[٤]. ولعلم

---

(١) علم الحساب: هو علم لقوانين استخراج مجهولات عددية من معلومات مخصوصة، فموضوعه الأعداد، واشتقوا اسمه من كلمة الحساب المصدرية، ومعناها العدد. وقسم العرب العدد إلى مفرد ومركب* كان علم الحساب من مستلزمات علم الفرائض، فالشريعة إذن تقتضى بتعلمه، والحسابات التى يفترضها ممارسة هذا الفرع من فروع التشريع، تجعل الحساب علما مساعدا للخبراء فى التوريث، وفى استخراج نصيب الخراج**

* الكاشى: مفتاح الحساب، ص٤٥، ٤٤. الكرجى: الكافى فى الحساب، تحقيق سامى شلتوت، حلب، ١٩٨٦، ص٣٨. كمال الدين الفارسى: أساس القواعد فى أصول الفوائد، تحقيق مصطفى موالدى، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٦٨، ٧٠.

** البيرونى: استخراج الأوتار فى الدائرة، ص١٣.

(٢) الجبر والمقابلة: العلم باستخراج المقادير المجهولة من خواص الأعداد المتناسبة المتوالية من الواحد بالتركيب دون التحليل. الكاشى: المصدر نفسه، ص١٨٩. كمال الدين الفارسى: أساس القواعد فى أصول الفوائد، ص٤٥. أحمد فهمى أبو الخير: علوم العرب الرياضية وانتقالها إلى اوربا، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٣٠، ص٢٧. عمر فروخ: تاريخ الفكر العربى، ص. ١٨٥

(٣) حساب المثلثات: هو نوع من فروع الرياضيات الذى له صلة وثيقة بعلم الجبر، وهو علم الزوايا وعلاقاتها فى الأبعاد، والفكرة الأساسية فى علم حساب المثلثات هى قياس المساحات الكبيرة والمسافات الطويلة بطريقة غير مباشرة، وكلمة حساب مثلثات فى جميع اللغات تعنى قياس الارتفاعات. على عبد الله الدفاع: نوابغ علماء العرب والمسلمين فى الرياضيات، ص٤٦.

(٤) الهندسة: فرع من فروع الرياضيات التى تتعامل مع النقطة والخط والسطح والفضاء، وباختصار هو العلم الذى يؤدى إلى دراسة الأشكال من حيث الحجم والمساحة. وقسم علماء المسلمين الهندسة إلى قسمين: هندسة عقلية وهى التى تعرف وتفهم أو التى=

الرياضيات أصل عريق فى تاريخ الإنسانية، حيث إن الإنسان يحتاج إلى العمليات الحسابية، وإلى المقاييس فى حياته اليومية، مما دعاه إلى تطوير علمى الحساب والهندسة، اللذين نشأا قرينين، كل منهما تكملة للآخر، كما كانت الهندسة المعمارية من أبرز ظواهر الحضارة الإنسانية[١].

طبق المسلمون علم الحساب فى تجارتهم اليومية، وعلم الجبر فى علم الميراث المعروف بعلم الفرائض[٢] ولم يجعلهم ذلك يقفون عند حده، بل دفعهم إلى البحث عن معرفة أوقات الصلاة التى تختلف حسب المواقع، ومن يوم إلى آخر، ومن المعروف أن حسابها يحتاج إلى معرفة عرض الموقع الجغرافى، وحركة الشمس فى البروج وأحوال الشفق الأساسية ودفعتهم رغبتهم فى معرفة سمت القبلة وهلال شهر رمضان، إلى اختراع حسابات وطرق متناهية الدقة[٣]. ويعتبر شرف الدين حسين بن حسن السمرقندى (ت٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) من كبار رواد هذا العلم، فكان من أشهر الرياضيين فى عصره، له مصنفات هامة منها رسالة فى طريق المسائل العددية[٤].

اهتم علماء المسلمين بالهندسة اهتماما كبيرا، والخطوة الأولى التى اتخذها علماء المسلمين هى ترجمة كتاب إقليدس[٥] فى علم الهندسة الذى

=تسمى الهندسة النظرية. والهندسة الحسية وهى التى ترى بالعين وتدرك باللمس، أى الهندسة التطبيقية. على عبد الله الدفاع: المرجع نفسه، ص٥٦. ٥٢. عمر فروخ: المرجع نفسه، ص١٨٥.

(١) على عبد الله الدفاع: المرجع نفسه، ص٥١.

(٢) البيرونى: المصدر نفسه، ص١٣.

(٣) على عبد الله الدفاع: المرجع نفسه، ص٤٣.

(٤) اقا بزرك الطهرانى: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، جـ٢٠، ص٣٥٧. زهير حميدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية فى العلوم الأساسية والتطبيقية، مج٣، ص٢١٣

(٥) إقليدس صورى الأصل اسكندرانى المقر، كان أشهر رياضى العالم، وأعمقهم أثرا وقد استدعاه أول بطليموس حكم مصر(٣٢٣-٢٨٥ق.م) لتأسيس مدرسة الرياضيات فى=

يسمى بالعربية كتاب الأصول الهندسية أو الأركان الهندسية، ويحتوى كتاب إقليدس على خمس عشرة مقالة: منها أربع مقالات فى السطوح الهندسية، ومقالة فى المقادير المتناسبة، وأخرى فى نسب السطوح بعضها إلى بعض، وثلاث مقالات فى العدد والتمثيل الهندسى، ومقالة فى المنطق، وخمس مقالات فى المجسمات(١).

وأعقبت فترة الترجمة والبداية فى القرن (٣هـ/ ٩م) مرحلة إبداع من القرن (٤-٩هـ/ ١٠-١٥م) جرى خلالها تدريجيا شرح الأعمال المترجمة ومناقشتها وتصويبها، فعلى الرغم من أن أساتذة أمثال إقليدس نال احتراما يبلغ حد التوقير والتبجيل، فأن العلماء فى سمرقند لم يتهيبوا أن يفندوا نتائجهم، بل ويصوبوها فى بعض الحالات. كذلك قدم هؤلاء العلماء إسهامات فذة فى مجال الهندسة النظرية(٢).

تنسب أعظم هذه الأعمال أهمية إلى شمس الدين أشرف الحسينى السمرقندى (ت٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م) من كبار رياضى ومهندسى بلاد ما وراء النهر، وهو صاحب كتاب أشكال التأسيس فى الهندسة(٣) وهى خمسة

=الإسكندرية، وشهرة اقليدس تقوم على كتاب واحد هو الاسطقسات الذى سماه العرب كتاب الأصول. شمس الدين السمرقندى: أشكال التأسيس، ص١٣. أبو القاسم صاعد الأندلسى: طبقات الأمم، ص٣٦. على بن أحمد النسوى: هندسة إقليدس فى أيد عربية (كتاب الأصول لإقليدس)، دار البشير، عمان، ١٩٩١، ص١٤، ١٥. زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقى، ط٨، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٦، ص١٠٨.

(١) على عبد الله الدفاع: نوابغ علماء العرب والمسلمين فى الرياضيات، ص٥٣.

(٢) دونالد هيل: العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية، ص٤٦.

(٣) ابن الجوزى: أعمار الأعيان، ص٢٠. إسماعيل باشا البغدادى: هدية العارفين، جـ٢، ص١٠٦. عمر رضا كحاله: معجم المؤلفين، مج٣، ص١٣٦. قدرى حافظ طوقان: تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك، ص٤٢٨.

وثلاثون شكلا من كتاب اقليدس أوله" الحمد لله رب العالمين وبعد فإن جماعة من الفضلاء وطائفة من الأصدقاء التمسوا منى رسالة تكون مقدمة وآلة فى اقتناء براهين العلوم الحسابية، كالأعمال الجبرية والأعمال الحسابية، وذلك مؤسس على أشكال التأسيس من كتاب اقليدس". تناولته كتب كثيرة بالشرح منها "تحفة الرئيس فى شرح أشكال التأسيس" ويقول السمرقندى عن كتاب اقليدس: "أشكال شريفة ينبنى عليها براهين الهندسيات وتنتشى إليها مسائل الرياضيات،على أنها رائضة لقوى العقل، وقد بينها اقليدس بمقدمات بعضها غير محتاج إليها، وبعضها أخفى من الدعوة"(١).

يتناول السمرقندى فى كتابه أشكال التأسيس، الخمسة الأخيرة من كتاب الأصول لاقليدس(٢) خاصة بسطوح الأعداد، والأولى من أول الكتاب. ويمهد لكل ذلك بمقدمة مطولة يبرر بها إقدامه على التحرير فى هذا الموضوع، ويقدح فى مقدمات اقليدس ومن قلده فيها، كما يطعن "فيمن سماهم السادة من مخالفيه". وهذه المسائل الرياضية قد بينها اقليدس بمقدمات بعضها غير محتاج إليها وبعضها أخفى من الدعوى واستعمل بعض من تبعه طرفا من الحركات التى هى الطبيعيات. فطعن المتأخرون فى هذا البيان ورغب عنه المحققون لأن بيان مسائل علم بطريقة علم آخر غير مستحسن عند المحققين. ويبدو أن قاضى زاده لا يجارى السمرقندى فى قساوته، ويلاحظ أن اقليدس نفسه لم يكن واثقا من وضوح مصادرته، ولذا جعلها من الأصول الموضوعة دون العلوم المتعارفة(٣).

---

(١) شمس الدين السمرقندى: أشكال التأسيس، ص ١٧، ١٨.

(٢) حاجى خليفة: كشف الظنون، مج١، ص١٠٥. حكمت نجيب عبد الرحمن: دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب، ص١٦٣. قدرى حافظ طوقان: تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك، ص٤٢٨.

(٣) شمس الدين السمرقندى: المصدر نفسه، ص ٢٣، ٢٥.

ولم يكتف السمرقندى بأنه نقل فى كتابه خمسة وثلاثين شكلا من كتاب الأصول لاقليدس، بل تصرف فى المادة المنقولة بترتيبها ترتيبا مختلفا عن ترتيب اقليدس، وبإبرازه لقضايا هامة فى الهندسة، وبالبراهين التى قدمها عنها فشرح أشكال التأسيس. ويبدو كتابا تضافرت فى إكمال مادته وأحكام صورته جهود علماء اختلفت عصورهم وبلدانهم واتفقوا فى تقديرهم للهندسة وفى اعتبار منزلتها بين العلوم، فإن كان لاقليدس فضل السبق إلى الأصول، فللسمرقندى مزية الإحياء والتهذيب فى الأطوار المختلفة التى مرت بها الحضارة الإسلامية(١).

قام بشرح كتاب أشكال التأسيس موسى بن محمد بن محمود الرومى المعروف باسم قاضى زاده عالم بالرياضيات والفلك والحكمة (ت٩٣١هـ/ ١٥٢٤م)(٢) وهو شرح ممزوج لطيف وعليه تعليقات، منه حاشية تلميذه أبى الفتح محمد بن سعيد الحسينى المدعو بتاج الدين السعيدى وحاشية أخرى لفصيح الدين محمد، علقها للأمير على شير الوزير وعلى أوائله تعليق لقاضى زاده أيضا(٣).

كما كان أبو منصور محمد بن سليمان بن قتلمش بن تركانشاه السمرقندى الأصل البغدادى (ت٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) من كبار العلماء، تجمعت فيه أشتات الفضائل، أخذ من كل فن من العلم بنصيب وافر، وكان له اليد الباسطة فى حل اقليدس وعلم الهندسة(٤).

---

(١) شمس الدين السمرقندى: المصدر نفسه، ص٦، ٥.

(٢) حاجى خليفة: كشف الظنون، مج١، ص١٠٥. شمس الدين السمرقندى: أشكال التأسيس، ص١٩.

(٣) حكمت نجيب عبد الرحمن: دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب، ص١٦٣. قدرى حافظ طوقان: تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك، ص٤٢٨.

(٤) ابن الدمياطى: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، جـ١، ص ١٤، ١٥. السيوطى: بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة، جـ١، ص١١٥. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص١٠٢. المنذرى: التكملة لوفيات النقلة، مج٣، ص٩٨.

هكذا أدى علم الرياضيات دورا كبيرا فى خدمة العلوم لذا يطلق عليه علم العلوم، ولم يستغن الإنسان منذ القدم عن المعارف الرياضية لصلتها بحياته الدينية والاقتصادية.

٣ - علم الطب[١]

الطب صناعة تحفظ الصحة فى بدن الإنسان حاصلة وتستردها زايلة، وبها يزدان الجسم بطول الشعر وصفاء البشرة وطيب الرائحة والنشاط[٢] ويقول ابن أبى أصيبعة: "كانت صناعة الطب من أشرف الصنائع وأربح البضائع. حتى جعل علم الأبدان قريبا لعلم الأديان. والصناعة الطبية حافظة للصحة الموجودة واردة للصحة المفقودة، فوجب إذ كانت صناعة الطب من الشرف بهذا المكان، وعموم الحاجة إليه فى كل وقت وزمان أن يكون الاعتناء بها أشد، والرغبة فى تحصيل قوانينها الكلية والجزئية أكد وأجد"[٣].

مارس الأطباء مهنة الطب فى البيمارستانات[٤]، وهى إحدى المنشآت

---

(١) الطب الحذق والمهارة، والطباب لغة العلاج والطبابة حرفة الطبيب، وطابه أى داواه وعالجه، وكلمة طب فى ابسط معانيها تعنى فن معالجة المرضى والمتألمين والمصابين. عامر النجار: فى تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية، ص٧.

(٢) نظامى عروضى سمرقندى: جهار مقاله، ص٧٤.

(٣) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، جـ١، دار الثقافة، بيروت، ص٧.

(٤) البيمارستانات: كلمة فارسية مركبة من: "بى" بمعنى بدون، و"مار" بمعنى: مريض أو عليل، و"ستان" بمعنى: مكان أو دار، أى المكان الذى يذهب المرض، ثم اختصرت مارستان. وكانت البيمارستانات من أول عهدها إلى زمن طويل مستشفيات عامة، تعالج فيها الأمراض والعلل من باطنية وجراحية، إلى أن أصابها الكوارث ودار بها الزمن وحل بها البوار وهجرها المرضى فأقفرت إلا من المجانين حيث لا مكان لهم سواها، فصارت كلمة مارستان مأوى المجانين. ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة، ١٩٥٥، ص٧٨. أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات فى الإسلام، دمشق، ١٣٥٧، ص٤. عبد الله بن العباس الجرارى: تقدم العرب فى العلوم والصناعات، دار=

والعمائر التى يشيدها الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء أهل الخير على العموم صدقة وحسبة وخدمة للإنسانية وتخليدا لذكراهم. ولم تكن مهمة البيمارستانات قاصرة على مداواة المرضى، بل كانت فى نفس الوقت معاهد علمية ومدارس لتعليم الطب، يتخرج منها المتطببون[١].

كانت البيمارستانات نوعين: ثابت ومحمول. فالثابت ما كان ثابتا فى موضع خاص لا ينتقل منها وهى على نوعين عامة وخاصة. والبيمارستانات العامة: كان لكل مدينة كبرى بيمارستان واحد على الأقل للعناية بالمرضى، وهى مؤسسة حكومية يشيدها ويقوم بنفقاتها أحد الخلفاء أو أحد الحكام[٢]. ومنها تلك المستشفى التى أنشأها إبراهيم طمغاج خان (٤٤٤ - ٤٦٠هـ/ ١٠٥٢ - ١٠٦٧م) فى سمرقند[٣].

أما البيمارستانات المحمولة أو المتنقلة فهى التى تنقل من مكان إلى مكان بحسب ظروف الأمراض والأوبئة وانتشارها وكذلك الحروب، وهو عبارة عن مستشفى مجهز بجميع ما يلزم للمرضى والمداواة من أدوات وأدوية وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة وكل ما يعين على ترفيه الحال على المرضى والعجزة والمزمنين والمسجونين، ينقل من بلد إلى أخرى من البلدان الخالية من بيمارستانات ثابتة أو يظهر فيها وباء أو مرض معد[٤].

=الفكر العربى، ١٩٦١، ص٧٢. بول غليونجى وآخرون: موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، جـ١، ص٢٢.

(١) أحمد عيسى: المرجع نفسه، ص٣. شوكت الشطى: موجز تاريخ الطب عند العرب، دمشق، ١٩٥٩، ص ٩، ١٠.

(٢) شوكت الشطى: المرجع نفسه، ص١٠.

(٤) Davidovich, The Karakhanids History of civilization of central Asia,vol.4,p130. Svat Soucek, A History of Inner Asia, p85.

(٣) أحمد عيسى: المرجع نفسه، ص١١. شوكت الشطى: المرجع نفسه، ص٤٨. عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد: المستشفيات الإسلامية، دار الضياء، عمان، ١٩٨٧، ص٩٠. ناجى معروف: أصالة الحضارة العربية، ص٣٤٦.

فضلا عن ذلك كانت البيمارستانات منقسمة إلى قسمين منفصلين أحدهما عن الآخر، قسم للرجال وقسم للنساء، وكل قسم مجهز بما يحتاجه من آلة وعدة وخدم وفراشين من الرجال والنساء وقوام ومشرفين، وفى كل قسم من هذين القسمين عدة قاعات لمختلف الأمراض، فقاعة للأمراض الباطنية، وقاعة للجراحة، وقاعة للكحالة[١].

كان للبيمارستان رئيس يسمى ساعور- متفقد المرضى - ولكل قسم من أقسامه رئيس[٢]. وللبيمارستان صيدلية تسمى شرابخانه لها رئيس يسمى شيخ صيدلى البيمارستان. كما كان للبيمارستان ناظر يشرف على إدارته وأحواله[٣]، وكان لهذه البيمارستانات أوقاف كثيرة تكفى للقيام بحاجاتها من غذاء وكساء وأدوية وأجور للأطباء والممرضين والخدم والوقود والمياه[٤]، وكان يتولى هذه الأوقاف ناظر الوقف، الذى يلى ناظر البيمارستان فى المرتبة، ووظيفته هى إدارة الأموال والأوقاف المخصصة لبيمارستان وكانت النظارة من وظائف الدولة السامية[٥].

---

(١) عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد: المستشفيات الإسلامية، ص ٧١. ماهر عبد القادر محمد: دراسات وشخصيات فى تاريخ الطب العربى، دار المعرفة، الإسكندرية، ١٩٩١، ص٣٠١. محمد كامل حسين وآخرون: الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، جـ١ ،ليبيا، ص ٢٢٨.

(٢) حكمت نجيب عبد الرحمن: دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب، ص٧٥. عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد: المرجع نفسه، ص ٧١. ماهر عبد القادر محمد: المرجع نفسه، ص٣٠٢. محمد كامل حسين وآخرون: المرجع نفسه، جـ١، ص٢٢٨.

(٣) حكمت نجيب عبد الرحمن: المرجع نفسه، ص٧٥. عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد: المرجع نفسه، ص٥٢.

(٤) ناجى معروف: أصالة الحضارة العربية، ص٣٤٩.

(٥) محمد كامل حسين وآخرون: المرجع نفسه، جـ١، ص٢٢٨. عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد: المرجع نفسه، ص ١٦٨، ١٦٩.

كما كان فى البيمارستان طريقان للعلاج، علاج خارجى أى أن المريض يتناول الدواء من البيمارستان ثم ينصرف ليتعاطاه فى منزله. وعلاج داخلى يقيم المريض فى البيمارستان فى القسم الخاص والقاعة الخاصة بمرضه[١].

أما عن طريقة التدريس فى البيمارستانات فكانت على منهجين منهج نظرى يطبق فى المدارس الطبية ويشمل دراسة الأمراض وكيفية علاجها. ومنهج عملى يشمل التدريب والتمرين على كيفية التطبيب والمعالجة يجتمع بموجبه الطلاب حول رئيس الأطباء ليشاهدوا أطراف الفحص ووصف العلاج[٢] وإذا قضى الأطباء مدة الإجازة تقدموا للامتحان، ثم أقسموا اليمين، ونالوا الشهادة، ومن بعد ذلك يحق لهم ممارسة الطب تحت رقابة الدولة، وكان الطب يخضع إلى ما يشبه نظام الاختصاص على أيامنا[٣].

أما المحتسب فكان يمثل الدولة فيراقب مراقبة مشددة ودقيقة أحوال المرضى وما يشتكون منه، وما يحتاجون إليه من طعام وأدوية وغير ذلك، وكان للمحتسب أعوان يساعدونه لمراقبة المصالح العامة[٤]. ولا شك أن البيمارستان بهذا الترتيب كان يؤدى وظيفته الطبيعية من حيث التشخيص، وتحديد المرض ووصف العلاج[٥].

---

(١) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات فى الإسلام، ص٣١. محمد كامل حسين وآخرون: المرجع نفسه، جـ١، ص٢٣٠.

(٢) إبراهيم بن مراد: بحوث فى تاريخ الطب والصيدلة، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٩١، ص ٢٤١، ٢٤٢. حكمت نجيب عبد الرحمن: دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب، ص٤٣.

(٣) أحمد رمضان أحمد: حضارة الدولة العباسية، ص١٤٥. حكمت نجيب عبد الرحمن: المرجع نفسه، ص٤٣. ول ديورانت: قصة الحضارة، مج٤، جـ٢، ص ١٩٠.

(٤) عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد: المستشفيات الإسلامية، ص١٦٦.

(٥) ماهر عبد القادر محمد: دراسات وشخصيات فى تاريخ الطب العربى، ص٣٠٢.

ومن أشهر الأطباء فى سمرقند أبو عبد الله شرف الزمان محمد بن يوسف الايلاقى (ت٥٣٦هـ/ ١١٤١م) كان من تلاميذ ابن سينا وعمر الخيام، نزيل سمرقند قتل بمعركة قطوان بسمرقند، من مؤلفاته كتاب الفصول الإيلاقية فى الطب. وهو كتاب قيم مليء بالشروح العديدة لكتاب القانون لابن سينا[١]. وبدر الدين محمد بن بهرام بن محمد القلانسى السمرقندى (٥٩٠هـ/ ١١٩٤م) كان مجيدا فى صناعة الطب، وله عناية بالنظر فى معالجات الأمراض ومداواتها[٢].

كما كان أبو المحامد نجيب الدين محمد بن على بن عمر السمرقندى (ت٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) من كبار علماء الطب البارعين فى عصره، لكن مما يؤسف له أنه قتل فى جملة الناس الذين قتلوا بمدينة هراة لما دخلها التتار[٣] وكان معاصرا لفخر الدين الرازى بن الخطيب[٤] ولنجيب الدين السمرقندى كتب وتصانيف مشهورة منها كتاب أغذية المرضى، قسمه على حسب ما

---

(١) ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص٣١٤. الزركلى: الأعلام، جـ٧، ص١٤٩. الزركلى: ترتيب الأعلام على الأعوام، مج١، ص٣٦٣. محمد محمود إدريس: السلطان سنجر السلجوقى، ص١٣٨.

(٢) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، جـ٣، ص٤٧. العطار الهارونى: منهاج الدكان ودستور الأعيان فى أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان، تحقيق حسن عاصى، دار المناهل، بيروت، ١٩٩٢، ص١١١.

(٣) الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ٤٤، ص ٤٢٥، ٤٢٦. اقا بزرك الطهرانى: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، جـ٢٠، ص٨٨. أحمد بيرشك: كارنامه برزكان ايران، انتشارات راديو، ١٣٤٠، ص٣٧٥.

Martin Levey, Early Arabic Pharmacology , p35.

(٤) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، جـ٣، ص٤٧. الصفدى: الوافى بالوفيات، جـ٤، ص١٨٤. شوكت الشطى: اللب فى الإسلام والطب، دمشق، ١٩٦٠، ص٣١٧.

يحتاج إليه فى التغذية لكل واحد من سائر الأمراض، وكتاب الأسباب والعلامات، فى الأمراض الجزئية وأسبابها وعلاماتها وعلاجها، جمع فيه جميع العلل والأمراض الجزئية على سبيل الاستقصاء حتى لا يشذ منها علة مع أسبابها وعلاماتها، وأردف كل نوع بعلاج مجمل نقلا من كتب: القانون لابن سينا، ومن المعالجات البقراطية[١]، وذكر فيه أن شفاء مرض البهاق شبه مستحيل، واهتم السمرقندى بعلاج الورم الناتج عن إصابات الجمجمة وأوضح فى كتاباته أسس العلاج[٢] ويعرف هذا الكتاب بالنجيبيات فى الطب وهو أجزاء، أما عن سبب شهرة هذا الكتاب فترجع إلى الفصل الذى نقله عنه نفيس ابن عوض الكرمانى (٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م) عن الماليخوليا[٣] وله أيضا رسالة فى مداواة وجع المفاصل، ومقالة فى كيفية تركيب طبقات العين، وكتاب الإرشاد فى الطب النافع لجميع الأمراض، وكتاب الأغذية والأشربة للأصحاء، وكتاب الأغذية والأشربة للمرضى، وكتاب كامل الصناعة[٤].

كان زين الكحال السمرقندى (ت بعد ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) من كبار أطباء العيون، قام بمداواة عين جنكيز خان من الرمد، وكان الكحال هذا مفرطا فى قبح الصورة وسوء العشرة[٥].

---

(١) ابن أبى أصيبعة: المصدر نفسه، جـ٣، ص٤٧. حاجى خليفة: كشف الظنون، مج١، ص٧٧. أحمد عطية الله: القاموس الإسلامى، جـ٣، ص٤٩٦.

(٢) محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية فى العلوم الطبيعية والطب، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٤، ص٣١٧.

(٣) بول غليونجى وآخرون: موسوعة العلوم الإسلامية، جـ٣، ص١١٠.

(٤) إسماعيل باشا البغدادى: هدية العارفين، جـ٢، ص١١٠. الزركلى: الأعلام، جـ٦، ص٢٨٠. عمر رضا كحاله: المستدرك على معجم المؤلفين، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٨، ص ٧٠٨، ٧٠٩.

(٥) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، ص٩٨.

مما تقدم نرى أن البيمارستانات الإسلامية كانت تسير بنظام وترتيب محكمين دقيقين حيث كان هنالك ناظر البيمارستان وناظر الوقف والمحتسب والساعور وبواسطة هؤلاء كانت أحوال البيمارستانات وما يجرى فيها منضبطة.

٤ - علم الصيدلة[١]

الصيدلة أشرف الصنائع بعد الطب وهى آله لها عرفت بصناعة العطر والشراب[٢]، وهى فن علمى يبحث فى أصول الأدوية[٣] سواء أكانت نباتية أم حيوانية أم معدنية، من حيث تركيبها وتحضيرها ومعرفة خواصها الكيمائية والطبيعية وتأثيرها الطبى وكيفية استحضار الأدوية المركبة منها. فتاريخ الصيدلة هو أذن نفس تاريخ الأدوية وطريقة استعمالها وحفظها[٤]. وقد ميز علماء الصيدلة فى مدن الصغد فى العصور الإسلامية بين نوعين من الأدوية:

---

(١) الصيدلة: لفظ معرب، أصله هندى جاء للعرب من الفرس وذلك من " جندل أو جندن " حيث قلبت الجيم صادا فأصبحت صندل أو صندن، وهو خشب العطر المعروف الذى يجلب من الهند، إذ لم تكن العرب تفرد له أسماء أو تسمية فنقلوا هذا الاسم المعرب من مزاولى العطر إلى مزاولى الأدوية. البيرونى: كتاب الصيدنة، تحقيق الحكيم محمد سعيد ورانا إحسان إلهى، باكستان، ص٦. عبد العزيز عبد الرحمن: تاريخ الطب والصيدلة والكيمياء عند قدماء المصريين، ص٥. عبد العظيم حفنى صابر وعبد الحليم منتصر: موجز تاريخ الصيدلة من كتاب موجز تاريخ الطب والصيدلة لمحمد كامل حسين، جـ٢، ص٢٧١.

(٢) العطار الهارونى: منهاج الدكان ودستور الأعيان فى أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان، ص٥.

(٣) الأدوية: عبارة عن مركبات كيميائية تستخدم إما لتغيير وظيفة من وظائف الجسم أو للقضاء على جرثومة ناقلة للعدوى، وهى تحدث تأثيرها بالتفاعل مع أجزاء من الخلايا قادرة على التجاوب معها تسمى مستقبلات الدواء. دوجلاس وبايبر: مبادئ علم الأدوية والعلاج، ترجمة زينب حلمى حسين، مؤسسة الأهرام، ١٩٧٨، ص١.

(٤) شحاتة قنواتى: تاريخ الصيدلة والعقاقير فى العهد القديم والعصر الوسيط، دار المعارف، القاهرة، ص١١.

١ - الأدوية المفردة وتعرف باسم العقاقير، وهى التى تتكون من صنف واحد سواء كان هذا الصنف مصدره نباتى أو حيوانى أو معدنى .

٢ - الأدوية المركبة وتعرف باسم الاقربازين[١] وهى الأدوية التى تتركب من أكثر من نوع واحد من العقاقير[٢]. أما الاصطلاح العربى صيدلى أو صيدلانى - الذى يبيع العقاقير الطبية ويركب الأدوية -[٣] فهو على ما ذهب إليه البيرونى: "المحترف لجمع الأدوية على أحد صورها واختيار الأجود

---

(١) اقرباذين: كلمة يونانية الأصل معناها تركيب الأدوية، وطرق تحضيرها وفحصها وحفظها أى ما نطلق عليه فى الوقت الحاضر اسم دستور الأدوية، وانتقلت إلى اللغة العربية عن طريق اللغة السريانية فى صدر الدولة العباسية*. وتطور مفهوم هذه الكلمة فى العصر الحديث فأصبح يطلق على العلم الذى يبحث فى تأثير الأدوية فى أجسام الكائنات الحية**.

* القلانسى السمرقندى: اقرباذين القلانسى، تحقيق محمد زهير البابا، حلب، ١٩٨٣، ص٤، ٥. شحاتة قنواتى: المرجع نفسه، ص١٢، ١٣. على الجمبلاطى وأبو الفتوح التوانسى: ابن البيطار الأندلسى، ص١٥

** عبد العزيز حفنى صابر وعبد الحليم منتصر: المرجع نفسه، جـ٢، ص٢٧٣.

(٢) العقاقير: مفردها عقار، ومعناها أصول النبات، ثم اتسع بعد ذلك معنى هذه الكلمة فدلت على جميع أجزاء النبات أو الأعشاب المستعملة للعلاج، ثم ضمت الأدوية الحيوانية والمعدنية*. وهى كلمة مختلف فى أصلها فيقول البعض إنها عربية من الفعل عقر، والعقار هو النبات الذى يعقر الإبل فى الصحراء بأن يسمها، ومن ذلك أطلق هذا اللفظ على النبات السام ثم عممه العرب على النباتات ذات الفوائد الطبية. وقيل إن عقار معربة، ولكن اختلف فى أصلها فالبعض قال إن عقار عبرية الأصل ومعناه أصول النباتات، وقيل إنها سريانية الأصل وتعنى أصل النبات وفرعه** .

* شحاته قنواتى: تاريخ الصيدلة والعقاقير فى العهد القديم والعصر الوسيط، ص١٢

** يوسف محمود: الإنجازات العلمية فى الحضارة الإسلامية، ص١١٨.

(٣) على الجمبلاطى وأبو الفتوح التوانسى: ابن البيطار الأندلسى، ص١٤.

من أنواعها، مفردة أو مركبة على أفضل التراكيب التى خلدها مبرزو أهل الطب[1].

يرى البيرونى أن كلمة صيدلانى تعريب لكلمة جندلانى بقلب الجيم صادا، وكلمة جندن وصندل تدل على أفواه الطيب أو ينسبون الكلمة أيضا إلى الصندل، وفى كلتا الحالتين يظهر جليا أنها كانت تدل أصلا على أن الصيدلى هو الشخص الذى يجمع الأعشاب النافعة للتطبب[2]. وبلغت عناية العرب والمسلمين بالدواء وكيفية استنباطه واستخراجه واستعماله عناية بالغة، لذلك رأيناهم يهتمون بإدخاله فى الإطار التطبيقى لنظام الحسبة الذى يقتضى بمراقبة نشاط الصيادلة فى إنتاج الدواء[3].

أما عن أبرز الإسهامات فى هذا المجال فكانت على يد بدر الدين محمد بن بهرام بن محمد القلانسى السمرقندى (ت ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م) الذى يعد من كبار الصيادلة فى عصره، له عناية بالغة بالنظر فى معالجة الأمراض ومداواتها، وله كتاب الاقرباذين[4] وهو تسعة وأربعون بابا، استوعب فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأدوية المركبة، وجمع أكثر ذلك من الكتب المعتمد عليها كثيرا، مثل: الطب فى القانون لابن سينا، والحاوى والمنصورى للرازى، والكامل لعلى بن العباس المجوسى، والذخيرة لثابت بن قرة، والكفاية[5].

---

(١) البيرونى: كتاب الصيدنة، ص١. توفيق الطويل: العرب والعلم فى عصر الإسلام الذهبى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٤٢.

(٢) البيرونى: المصدر نفسه، ص٣.

(٣) بول غليونجى وآخرون: موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، جـ١، ص٢٤. على الجمبلاطى وأبو الفتوح التوانسى: المرجع نفسه، ص٥٢.

(٤) العطار الهارونى: منهاج الدكان ودستور الأعيان فى أعمال وتراكيب الأدوية النافعة للأبدان، ص١١١.

(٥) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، جـ٣، ص٤٧. الصفدى: الوافى بالوفيات، جـ٢، ص٢٧٣. القلانسى السمرقندى: اقرباذين القلانسى، ص ٨.

يعتبر أقرباذين القلانسى من الناحية الصيدلية من أكمل ما كتب فى موضوعه بجميع اللغات حتى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى. ولم يتقيد القلانسى السمرقندى بضم الأدوية المركبة فقط فى كتابة، بل خصص عددا من الأبواب من (١-١٤) فى مقدمة كتابه للكلام عن تهيئة وفحص وحفظ المواد الأولية المستعملة فى تحضير الأدوية المركبة وذلك اعتقادا منه أن ذلك يعتبر من الأعمال الأساسية التى يجب أن يقوم بها الصيدلى قبل البدء بتحضير الدواء المركب[١]. أما بقية الأبواب فقد خصص منها عشرين بابا للكلام عن الأشكال الصيدلية المعروفة، بالإضافة إلى أربعة أبواب تكلم فيها عن أدوية الرعاف ـ أدوية القىء ـ أدوية الزينة علاج من شرب السموم، وجملة هذه الأبواب تشابه ما ورد فى اقرباذين كل من سابور وابن التلميذ[٢] وأخيرا هنالك بعض الإنجازات الصيدلية التى ورد ذكرها فى اقرباذين القلانسى منها:

١ - استعمل فى تحضير الأقراص الدوائية بعض اللعابات المصنوعة من حب السفرجل، بزر الكتان، بزر القطوناء.

٢ - أعطى للأقراص الدوائية التى توضع تحت اللسان شكلا مفرطحا تميزا لها عن بقية الأقراص.

٣ - ذكر أقراصا تنفع فى الصداع والسهر تجعل على شكل مثلث تذاب عند الحاجة بماء ورق الخس أو الكزبرة الرطبة وتطلى على الصدغ[٣].

كما يعد أبو المحامد نجيب الدين محمد بن على بن عمر السمرقندى (ت٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) من كبار علماء الطب والصيدلة، له مؤلفات كثيرة

---

(١) القلانسى السمرقندى: المصدر نفسه، ص ٩.

(٢) القلانسى السمرقندى: المصدر نفسه، ص ١٠.

(٣) القلانسى السمرقندى: المصدر نفسه، ص ١٠.

واهتم بالأدوية المركبة، ووضع فيها كتابه أصول تركيب الأدوية، وفيه بين أسباب وضرورات تركيب الأدوية وعدم تقديمها مفردة، ويستعرض مع الشرح صنوف الأدوية من أشربة ومعجونات وحبوب ومطبوخات وحقن وأضمدة وأطلية وغراغر ومربيات وأدوية للشعر، وهو يسوق لنا فى كتابه طرق التحضير وأوزان ونسب العقاقير والمواد المستخدمة فى التركيب، وأهم ما يلفت النظر فى هذا الكتاب هو عناية السمرقندى فيه بالتجربة والقياس على التجارب السابقة للوصول إلى الاستعمالات المأمونة[١]، ومن مؤلفاته أيضا كتاب إبدال الأدوية، وكتاب الإبدال من المعاجين والأقراص، والأدوية المفردة، وكتاب أدوية القلب وما يتعلق به، وكتاب الأدوية المفردة المستعملة وخواصها وأفعالها[٢] وكتاب اقرباذين السمرقندى ويتألف هذا الكتاب من عشرين بابا، صنفت فيه الأدوية على ترتيب العلل[٣]. ويعتبر هذا الاقرباذين نموذجا لكتب الوصفات الطبية المعروفة فى الوقت الحاضر[٤].

يجدر الإشارة هنا إلى أن الصيدلة والطب كانتا متلازمتين دائما فى جميع العصورالأولى فى مدن إقليم الصغد، وكان الشخص الواحد يقوم

---

(١) عبد الفتاح مصطفى غنيمة: ميادين الحضارة العربية الإسلامية وأثارها فى الحضارة الإنسانية، جـ ٢، مطابع جامعة المنوفية، ١٩٩٤، ص١٨٩. محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية فى العلوم الطبيعية والطب، القاهرة، ١٩٩٨، ص٣١٠، ٣١١.

(٢) عمر رضا كحالة: المستدرك على معجم المؤلفين، ص٧٠٨. كوركيس عواد: مصادر النباتات الطبية عند العرب، مطبعة المجمع العلمى العراقى، ١٩٨٦، ص٩٢ صلاح الدين المنجد: مصادر جديدة عن تاريخ الطب عند العرب، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ٥، جـ١، ١٩٥٩، ص٣٠٤ـ، ٣٠٦.

(٣) Martin Levey, Early Arabic Pharmacology, p35.

(٤) القلانسى السمرقندى: اقرباذين القلانسى، ص٧.

بفحص المرضى وتشخيص أمراضهم ثم يقوم بنفسه بتحضير الأدوية الخاصة لعلاجهم، وكانت علوم الطب والصيدلة تدرس مترافقة فى المدارس نفسها دون تحديد لأيهما[١].

فالطب والصيدلة إذن صناعتان مختلفتان، إلا أنهما متكاملتان، والطبيب الجيد الماهر هو الذى يكون فى نفس الوقت صيدلانيا ماهرا، يجيد معرفة قوى الأدوية وخصائصها المخصوصة بها وأفعالها ومنافعها ومضارها ومناسبها والمختار منها وإبدالها، ويجيد فن تركيبها، ولقد كان التأليف فيها فى الغالب جزءا من التأليف فى الطب العام[٢].

غلبت هذه النزعة إلى المزج بين صناعتى الطب والصيدلة فى مدن إقليم الصغد فى الفترة التى نتحدث عنها، فمعظم الأطباء كانوا صيادلة كما أسلفنا، إلا أن الجانب الطبى التطبيقى كان أغلب، فغلبت شهرة أهل هذه الصناعة فى هذه الفترة على أنهم أطباء لا صيادلة والفصل بين "بيت الوصف" - العيادة - و"بيت الصرف" - الصيدلية - كان أبرز . وخاصة فى البيمارستانات التى كانت الصيدليات فيها قائمة مستقلة عن قاعات المرضى، أى قاعات العلاج وكانت تحت إشراف صيادلة متخصصين، والدليل الذى عندنا على كون أطباء ذلك العصر صيادلة أيضا هو التآليف التى وضعها عدد منهم فى الصيدلية، أى فى الأدوية المفردة والمركبة[٣].

---

(١) عبد العظيم صابر وعبد الحليم منتصر: موجز تاريخ الصيدلة، جـ٢، ص٣١٤.

(٢) إبراهيم بن مراد: بحوث فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص ٢٤٨، ٢٤٩.

(٣) إبراهيم بن مراد: بحوث فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص٢٤٩.

٥ - علم النبات

علم يبحث فى خواص نوع النبات وعجائبها وأشكالها ومنافعها ومضارها، وموضوعه معرفة نوع النبات وفائدته ومنفعته للتداوى به[١]. كان النبات ومازال قوام الغذاء والدواء، ولذلك أبدعه الخالق وجعله بحكمته أجناسا وأصنافا وألوانا يختلف بعضها عن بعض، وتتغاير فيما بثه الله فيها من قوى وأودعه فى كيانها من خواص بحسب تركيبها الفسيولوجى والكيماوى والبيولوجى لتنقية الأهوية وتغذية الأبدان ومداواة أسقامها، وهى مع ذلك تبهج العين وتطيب النفس وتزين المحيط الطبيعى وتملأه حياة وجمال[٢].

عنى الإنسان منذ قديم الزمن بمعرفة النبات واستقصاء أحواله واستكشاف أسراره واستنباط خواصه ومنافعه لحفظ حياته ومداواة أسقامه، وتناولت القرون اللاحقة تجارب القرون السالفة فى ذلك، فتراكمت المعارف حتى صار علم النبات قائما بذاته، وأسهم علماء المسلمين فى تطور هذا العلم[٣]. واشتغل علماء مدن الصغد فى النبات واستخرجوا منه مواد كثيرة للطب والصيدلة وعطور كثيرة كالزعفران والكافور، كما أدخلوا جملة من المواد الطبية فى العقاقير والمفردات الطبية[٤].

وشاء الموقع الجغرافى الذى تمتعت به مدن إقليم الصغد أن تكون مركزا أساسيا للتجارة العالمية، فهى ملتقى للطرق التجارية الكبرى، لذلك فإن

---

(١) عمر رضا كحالة: العلوم البحتة فى العصور الوسطى، ص٢٨٢.

(٢) مجهول المؤلف: عمدة الطيب فى معرفة النبات، الأغذية والأدوية عند مؤلفى العرب الإسلامى، تحقيق محمد العربى الخطابى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٩٠، ص٣٩.

(٣) مجهول المؤلف: المصدر نفسه، ص٣٩.

(٤) عمر رضا كحالة: المرجع نفسه، ص٢٨٢.

أعشابا ونباتات طبيـة وعقاقير من أصل حيوانى لم يعرفـها طبيب من القدماء قد أتت من الصـين والهند وأفريقـيا، وكان من الطبـيعى أن يعرف أصـحاب الاختصاص ما لهذه الأعـشاب الشرقية من قوة شفائية ساحـرة، فاستعملوها كعـقاقيـر طبية وجـربوها ووضعوا تجـاربهم ونتائجـها فى كتب خـاصة بعلم الاقرباذين[١] كاقرباذيـن القلانسى واقرباذين السمـرقندى، ومن هذه النباتات القرفة التى كـانت تزرع فى سمرقند ولعبت دورا مهمـا فى الاقرباذين، حيث كانت أوراقها عنصرا من العناصر التـى تدخل فى تركيب الترياق، كما كانت أزهارها وأوراقها تحتوى على زيت أثيرى[٢].

كما أدخلت إلى العقاقـير العربية القديمة مواد طبية مـجهولة كالكافور والعنبر[٣] والراوند ـ جذر نبات ـ وكان علماء سمـرقند يعرفونه تمام المعرفة، وكان يأتى من الصـين، وكانت القوافل تحمـله وتتوقف فى سمرقند؛ لتـترك جزءا من حـمولتـها فى أسواقـها[٤]. والزنجبـيل الذى كان يبـاع فى أسواق سمرقند وكـان واردا من الصين والهند، وكان على شكلين إما أخـضر، وإما محـفوظا بمعالجـته بالسكر، وكان الهنود يعـدون منه مستـحضرات محـفوظة عرفـها العرب باسم زنجبـيلية، وكان العطارون يصنعـون معجونا مـعظمه من الزنجبـيل، كما كان يسـتعمل فى الطهى ويدخل فـى تحضير الأنبـذة المتبلة[٥] والترنجـبين ـ زهرة جوزة الطيب ـ وكـان يباع فى أسواق سـمرقند[٦] والقنب

---

(١) حميد مورانى وعبد الحليم منتصر: قراءات فى تاريخ العلوم عند العرب، ص٦٨، ٦٩.

(٢) هايد: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى، جـ٤، ص ١٠٠، ١٠١.

(٣) حميد مورانى وعبد الحليم منتصر: قراءات فى تاريخ العلوم عند العرب، ص٦٨، ٦٩.

(٤) هايد: المرجع نفسه، جـ٤، ص١٧٣.

(٥) هايد: المرجع نفسه، جـ٤، ص ١٢٢، ١٢٥، ١٢٦.

(٦) هايد: المرجع نفسه، جـ٤، ص٣٦.

الذى تشتهر به سمرقند وهو مخدر يقطع الطرف ويسكن بتخديره الأوجاع، ودهنه دواء لوجع الأذن من البرودة[١].

ومما لاشك فيه أن المسلمين فى مدن الصغد كشفوا بطول البحث والتجربة عن مزايا جملة صالحة من تلك النباتات، وعرفوا ما لها من أثر فى اكتساب الصحة ودفع المرض، وأبانوا عن وجوه استعمالها فى ما ينتاب جسم الإنسان من أمراض فتوصلوا إلى حقائق جديرة بالعناية والتدبر[٢].

٦ - علم الكيمياء

هو علم يراد به سلب الجواهر المعدنية خواصها، وإفادتها خواصا لم تكن لها[٣]، والاعتماد فيه على الفلزات كلها مشتركة فى النوعية، والاختلاف الظاهر بينهما إنما هو باعتبار أمور عرضية يجوز انتقالها[٤]. ولفظ الكيمياء عبرانى معرب، أصله " كيم يه" ومعنى ذلك أنه من الله[٥]. وقيل إن أصله عربى، واشتقاقه من كمى يكمى إذا ستر وأخفى، ويقال كمى الشهادة يكميها إذا كتمها، وكان منتحلو هذه الصناعة يراعون فيها قاعدة الستر والإخفاء[٦] وأطلق العرب على الكيمياء أسماء متعددة بعضها راجع فى أغلب الأمر إلى طبيعة الموضوع، وبعضها راجع إلى منهجهم فى البحث أو أغراضهم التى استهدفوها منه، فمن هذه الأسماء: علم الصنعة، صنعة الكيمياء، صنعة الإكسير، علم الحجر، علم التدبير، علم الميزان[٧].

---

(١) القزوينى: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ص٢١٥.

(٢) كوركيس عواد: مصادر النباتات الطبية عند العرب، ص٤،٣.

(٣) طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة، جـ١، ص٣٤٢.

(٤) عمر رضا كحالة: العلوم البحتة فى العصور الوسطى، ص٢٤٦.

(٥) طاش كبرى زاده: المصدر نفسه، ص٣٤١. عمر رضا كحالة: المرجع نفسه، ص٢٤٦.

(٦) حكمت نجيب عبد الرحمن: دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب، ص٢٣٩. روحى الخالدى: الكيمياء عند العرب، دار المعارف، القاهرة، ص١٠.

(٧) مصطفى لبيب عبد الغنى: الكيمياء عند العرب، دار الكتاب للطباعة، القاهرة، ١٩٦٧، ص٢٨.

وكان لعلماء مدن الصغد الفضل فى تطور علم الكيمياء من الأبحاث النظرية إلى التطبيقات العملية، حيث كان تطبيق علم الكيمياء فى الصيدلة من أهم الفوائد التى حققها هؤلاء العلماء[١] فقد عرفوا أسرار المداواة بالعقاقير الطبية من نباتية وحيوانية ومعدنية. واكتشفوا عددا كبيرا من النباتات الطبية والعطرية واستخدموها كأدوية مفردة أو فى تركيب الأدوية المركبة، وظلت العقاقير الطبية أساس العلاج[٢] وادخلوا فى الطب استعمال السنا المكى والكافور والمسك وجوز الطيب والقرفة وغيرها، وهم الذين اخترعوا الأشربة والكحول والخلاصات العطرية[٣].

جمع القلانسى السمرقندى فى الأبواب الأربعة عشر الأولى من كتابه اقرباذين القلانسى كل ما قيل عن التقاط وادخار العقاقير النباتية وتحضير الأدوية المفردة المعدنية من غسل وإحراق وقلى وتكليس وشى، ثم أتبعها الكلام عن تحضير بعض الأدوية المهيأة كعمل الأدهان الطبية واستخراج الأدهان النباتية وغسلها، وطبخ السرطانات واستخراج عسل البلاذر ولبن الشبرم. ودخان الكندر، وتحضير ماء الجبن وتطرية العود، وإصلاح الدبق والذراريح وغيرها. إن مجموع هذه الأبحاث يعتبر النواة الرئيسية لعلم حديث ظهر فى أوربا فى نهاية عصر النهضة، وهو علم الكيمياء الصيدلية[٤].

كما توصلت الدراسات الكيميائية إلى صناعة المستحضرات الكمالية مثل زيت الورد والبنفسج والدهون والمراهم ومستحضرات الزينة والعطور[٥]

---

(١) عبد العزيز عبد الرحمن: تاريخ الطب والصيدلة والكيمياء، ص٢٦٨. ماهر عبد القادر محمد: دراسات وشخصيات فى تاريخ الطب العربى، ص٤٦٨.

(٢) محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية، ص٣٢.

(٣) شوكت الشطى: اللب فى الإسلام والطب، ص ٢٤١، ٢٤٢.

(٤) القلانسى السمرقندى: اقرباذين القلانسى، ص ١٠.

(٥) وليم الخازن: الحضارة العباسية، ط٢، دار المشرق، بيروت، ص١٢١.

واستخراج الروائح من الأزهار، التى هى محاليل كؤلية لمواد عطرية من أصول نباتية كالأزهار والثمار والأوراق والبذور، ولكن أغلبها من الزهور ويقومون باستخراج الكؤل، وكان ذلك يستلزم معرفة طرق التقطير، ويأتى بعد الكؤل لامتصاص وحفظ الروائح من الدهن والزيت. وهذه الخاصية الأخيرة لا تزال تستعمل حتى اليوم، فإما توضع أوراق الزهور طبقات بعضها فوق بعض تتخللها طبقات من الدهن[١] وإما أن تنقع الزهور فى الزيت ثم يستخرج العطر بعد ذلك بالكؤل. وكانت سمرقند مشهورة بعطرها من الحبق الريحانى[٢] والشاهسفرم - ملك الرياحين -[٣].

اتخذت مستحضرات الزينة للنساء أهمية عظيمة. كما كثر استعمال القنب والأفيون فى العالم الإسلامى حرقا وتدخينا، وهما من النباتات المنومة المستعملة فى ضروب السحر[٤]. وعرفوا حامض الكبريتيك، وحامض النتريك والكحول، وسار علماء مدن الصغد فى علم الكيمياء على أساس التجربة، مما دفع هذا العلم خطوات فاصلة إلى الأمام ومكنهم من إضافات هامة إلى الكيمياء[٥] فكشفوا القلويات والنوشادر والزئبق ونترات الفضة[٦]

---

(١) عبد العزيز عبد الرحمن: تاريخ الطب والصيدلة والكيمياء، ص١٨٤.

(٢) ريسلر: الحضارة العربية، ص١٢٤

(٣) الشاهسفرم: تسميه العرب الضيمران والضومران، وهو نوع من الحبق دقيق الورق جدا يكاد يكون الذاب عطر الرائحة. ابن البيطار: الجامع لمفرادات الأدوية والأغذية، مج٣، القاهرة، ١٢٩١، ص٥٠. الثعالبى: لطائف المعارف، ص٢٣٩. السيوطى: حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، جـ٢ ص٢٩١. الغرناطى: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص٤٣. رمزى مفتاح: إحياء التذكرة فى النباتات الطبية والمفردات العطارية، القاهرة، ١٩٥٣، ص٣٨٦.

(٤) وليم الخازن: المرجع نفسه، ص١٢١

(٥) عمر رضا كحالة: العلوم البحتة فى العصور الوسطى، ص ٢٧٤، ٢٧٥.

(٦) الثعالبى: ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب، ص٥٤٣. لطائف المعارف، ص٢١٩.

كما عرفوا عمليات التصعيد والترشيح والتذويب والتبلور والتكليس والتقطير، وعرفوا أيضا الصودا الكاوية وكربونات الصوديوم وكربونات البوتاسيوم وغيرها مما تقوم عليه الصناعات الحديثة[١] ومن ثم استفاد علماء الصغد من مباحثهم الكيميائية فى الصناعة واستعانوا بها على تحضير كثير من الأملاح والمركبات والأحماض التى عرفوها لأول مرة فى تاريخ البحث الكيميائى، وكان لها أكبر الأثر وأنفعه[٢].

كما يظهر مدى التقدم الذى أحدثه علماء الصغد فى الكيمياء الصناعية، فى المهارة العظيمة التى أبداها صناعهم الفنيون فى الصباغة التى أوجدوها لتلوين الأنسجة والفسيفساء، وصناعة الأوانى الفخارية. وكانت هذه الأصباغ ثابتة حافظت على رونقها[٣] وبلغت صباغة الأقمشة درجة كبيرة، وكانت مواد الصباغة تعتمد قديما على المواد النباتية كالنيلة الزرقاء[٤] والحيوانية كدودة القز ودودة القرمز[٥] إلا أن رخص أثمان الأصباغ الكيميائية من قطران الفحم الحجرى، وسهولة استعمالها أدى إلى انتشار الصبغات الكيميائية[٦] واشتهر أحمد بن عبد الله بن يوسف بن الفضل السمرقندى الصبغى (ت٥٢٦هـ/ ١١٣١م) بأنه كان من الصباغين الماهرين، وكان من كبار الفقهاء يعمل فى الدار الجوزجانية[٧].

---

(١) عمر رضا كحالة: المرجع نفسه، ص ٢٧٤، ٢٧٥. نبيل صبحى حنا: التراث الطبى العربى، ص٤٤.

(٢) مصطفى لبيب عبد الغنى: الكيمياء عند العرب، ص٤٨.

(٣) ريسلر: الحضارة العربية، ص١٢٤.

(٤) صالح أحمد العلى: ألوان الملابس العربية فى العهود الإسلامية الأولى، مجلة المجمع العلمى العراقى، مج٢٧، ١٩٧٦م، ص٧٨.

(٥) سعاد ماهر: الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٦، ص١٧٦.

(٦) زين الخويسكى: معجم الألوان فى اللغة والأدب والعلم، بيروت، ١٩٩٢، المقدمة. سعاد ماهر: الكليم، مطبعة المعرفة، ص١١.

(٧) القرشى: الجواهر المضية، جـ١، ص١٨٥. تقى الدين التميمى: : الطبقات السنية، جـ١، ص٣٧٢.

كما اشتهر علماء الصغد بصناعة الخزف والأحبار والدهانات[1] وصناعة الزجاج حيث جلب علماء سمرقند الأدوات الزجاجية المختلفة إلى مختبراتهم واستعمل الكاثى فى عملية التقطير فرنا خاصا تتجدد فيه مواد الاحتراق تلقائيا وثبت الأنابيب الداخلة بعضها ببعض بواسطة قطع القماش[2] واستخدموا نفس الطريقة القديمة التى تتمثل فى صهر الرمل ـ أوكسيد السليكون ـ بعد خلطه بنسب معينة من الحجر الجيرى ـ كربونات الكالسيوم ـ بالإضافة إلى نسب من كربونات الصوديوم وأكاسيد أخرى ثم تشكيله بواسطة النفخ[3].

ويبدو لنا مقدار معارفهم فى الكيمياء الصناعية من حذقهم استخراج المعادن وصناعة الفولاذ، وكان لصناعاتهم تفوق عظيم بفضل معارفهم العلمية الكيميائية، فكانوا يعلمون استغلال مناجم الكبريت والنحاس والحديد والذهب[4] ودباغة الجلود. واشتهر الشيخ أبو على الحسين بن أبى زيد منصور الصغدى الدباغ (ت٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م) بأنه كان من أمهر الدباغين فى عصره[5].

فضلا عن ذلك كانت طرق الصناعة مختلفة ومعقدة مما يدل على أن أدواتهم كانت كثيرة ومتنوعة كما يثبت تمرسهم فى علم الكيمياء وفهمهم التام لخواص المعادن والفلزات وأكاسيدها وتفاعلها مع الحرارة[6] وعرف علماء

---

(١) دونالد هيل: العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية، ص١١٠.

(٢) حميد مورانى وعبد الحليم منتصر: قراءات فى تاريخ العلوم عند العرب، ص٧٤، ٧٣.

(٣) حسن الباشا: الفن عند الشعوب الإسلامية، مجلة الدارة، العددان ٣، ٤، ١٩٧٦م، ص١٥٤.

(٤) حميد مورانى وعبد الحليم منتصر: قراءات فى تاريخ العلوم عند العرب، ص٧٣، ٧٤.
مصطفى لبيب عبد الغنى: الكيمياء عند العرب، ص٥٠

(٥) ابن الجوزى: المنتظم، جـ٨، ص ٢٢٨.

(٦) سعاد ماهر: الفنون الإسلامية، ص١٢٣. محمد السويسى: العلوم والاستكشافات ودورها فى تطوير الصناعات والفنون، الفن العربى الإسلامى، جـ١، تونس، ١٩٩٤م، ص٩٩.

الصغد الكيمياء بمعناها التحويلى: الخيمياء وفكر بعضهم باكتشاف الحجر الفلسفى الذى يحول المعادن إلى ذهب[1].

وبين الاختراعات التى أفادت الصناعة فائدة كبرى صناعة الورق من القطن أو الكتان أو الخرق فقد فتح عصرا جديدا للحضارة، فإن نشر الكتاب بأسعار رخيصة وانتشار التعليم بين عامة الناس لم يصبحا أمرين ميسورين إلا بعد أن استبدل أهل سمرقند الورق العادى بدلا من الرقاق التى كان يستخدمها العالم قديما والأوراق الحريرية[2].

وتعتمد طريقة تصنيع الكاغد على أخذ القنب الأبيض - نوع من الألياف ويقال إن الأصل النباتى لهذه الألياف هو ما يعرف بالتيل - ثم يبل ويسرح بالمشط حتى يلين، ثم نؤخذ ماء الجير فينقع فيها ليالى ثم يفرك باليد، ويبسط فى الشمس حتى يجف ثم يعاد فى الليل ويوضع فى ماء جير جديد، ويترك للصباح، ثم يفرك ويبسط فى الشمس حتى يجف، وتتم هذه العملية لمدة ثلاثة أيام أو أكثر، ويفضل أن يبدل ماء الجير مرتين يوميا، حتى يبيض لون القنب ثم يقرض بالمقراض، وينقع فى ماء عذب لمدة سبعة أيام، مع مراعاة تبديل الماء يوميا، فإذا ذهب منه الجير، يدق فى الهاون دقا ناعما وهو ندى، حتى يلين ولا يبقى به شىء من العقد، ثم يوضع فى ماء جديد فى إناء نظيف وويحلل به، حتى يصير كالحرير، ثم يعمد إلى قوالب تشكيل الورق، والتى تكون ذات عرض وطول يرتضيه الصانع، ويكون بها فتحات ويوضع بها ذلك القنب بعد أن يتم ضربه فى إناء، ويغط القالب فى الماء

---

(١) حسن محمد الشرقاوى: المسلمون علماء وحكماء، دار المعرفة، الإسكندرية، ١٩٨٦م، ص ١٨٧. روم لاندو: الإسلام والعرب، ص٢٧١. عمر رضا كحالة: العلوم البحتة فى العصور الوسطى، ص٢٤٦. فهمى متى إسحاق: الكيمياء والكيميائيون، جـ١، الإسكندرية، ١٩٤٧م، ص٧٩. ويلز: موجز تاريخ العالم، ص٢٠٨

(٢) ماهر عبد القادر محمد: دراسات وشخصيات فى تاريخ الطب العربى، ص٤٦٨.

ويحرك باليد برفق علـى وجه القالب، حتى لا يكون به موضع سـميك وأخر رقيق، ثم يقلب ما على القـالب على لوح ويلصق على حائط نظيف أملس، ويترك حـتى يجف ويسقط ثم يؤخذ هذا الخليـط ويطلى به الورق من الوجه الأول ثم يؤتى بلوح ويرش بالماء ويجفف قليـلا ويضع عليه، ليطلى به الوجه الآخر. ولسقى الكاغد وتنشيـته يغلى أرز ويطبخ فى طنجير نظيف ثم يصفى ويسقى به الورق. ولتعتيق الكاغد يؤخذ طنجير نحاس يصب فيه عشرة أرطال ماء عذب ويحمل على النار ويطرح فيـه نشا جيد ويغلى حتى ينقص من الماء مقدار إصبعين ويوضع فيه بعض الزعـفران بقدر ما يحتاج إليه من تلوينه، ثم يصب فى طست واسع ويغمس فيه الورق غمسا رقيقا لكى لا يتقطع، وينشر على خيط دقـيق فى الظل، ثم يقلب كل سـاعة لكى لا يلتـصق، فإذا جف يصقل بمصاقل الزجاج، هكذا لم يهمل علماء الصغد أمر التطبيقات الصناعية مع قيامهم بمباحثهم النظرية[١].

ويعد التـغيير الكبـير الذى نال الورق فى سمـرقند على أيدى المسلمين حادثا مـهما فى تـاريخ العالم[٢]. وظلت سمـرقند وقتا طويلا المدينة الهـامة المنتجـة للورق الجيد، وأصـبحت منذ تركزت فـيها صناعـة الكاغد من المدن الكبيرة المنزلة فى بلاد ما وراء النهر، وفى أنحاء البلاد الإسلامية[٣] ولم تلبث

---

(١) هالة شاكر: الورق والوراقة، ص١١٩، ١٢٠.

(٢) آدم متـز: الحضارة الاسـلاميـة، جـ٢، ص٣٦٦. عبد الله بن العـباس الجـرارى: تقدم العرب فى العلوم والصناعات وأستاذيتهم لأوربا، ص٢١٣.

(٣) مرتضى راونـدى: تاريخ اجتمـاعى ايران، بخش دوم، جلد هشـتم، جابخانـه نوبهار، ١٣٧٤، ص١٠٣.

Annemarie Schimmel ,Calligraphy and Islamic Culture, p14. Vladimir Minorsky ,The Turks Iran and the Caucasus in the Middle Ages , p282.David Roxburch, on the Trans Mission and Reconstruction of Arabic Calligraphy Ibn al Bawwab and History , Studia Islamic , vol, 96,p41

أن اتسعت دائرة إنتـاج الكاغد وتصنيعه فلم يعـد قاصرا فقط على سـمرقند، تعددت مراكز تصنيعه وانتشرت فى أنحاء شتى[1].

(١) محمـد حسنى عبد الوهاب: البـردى والرق والكاغد فى افريقية التـونسية، مجلة مـعهد المخطوطات العربية، مج٢، جـ١، ١٩٥٦، ص٤٥.

Parter , The Art of Book Making the Splendour of Iran Islamic Period,p14. Sedgwick and Tyler , A Short History of Science ,p196. Skhuda Bukhsh , the Arab Civilization , p77 . Rebert Blake , The Circulation of Silver in the Moslem East down to the Mongol Epoch Harvard Journal of Asiatic studies, vol ,2, no 3/4 , 1937, p296 .